فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

سنة ١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام « إن للإسلام صُوى « ومناراً » كمنار الطريق »

(ربيع الآخر سنة ١٣٤٩ هـ ٢٩ السنبلة سنة ١٣٠٩ هـ ش ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٠)

تفسير القرآن الحكيم

تفسير سلفي أثري مدني عصري [illegible]

(٤١) انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون

روي عن أبي الضحى مسلم بن صبيح ان هذه الآية أول ما نزل من هذه السورة ثم نزل ماقبلها وما بعدها بعد ذلك ، ولا يصح بهذا نقل ، ولا يقبله فهم ولا عقل ، والتبادر من هذا السياق أن أوله خطاب الله للمؤمنين في قتال أهل الكتاب وما يسوغه وما ينتهي به من قبول الجزية منهم ، ويتلوه انكاره عليهم التثاقل عن النفراذ استنفرهم الرسول لغزوة تبوك ، وما قبله من أول السورة سياق مستقل تكلمنا عليه في أول تفسير السورة ، وقد تقدم ان السورة نزلت كلها بعد غزوة تبوك - وما قيل من استثناء الآيتين اللتين في آخرها، فان صح أن شيئا نزل منها قبل السفر فهذا السياق من أوله الى آخره لا هذه الآية وحدها ، وأما ما بعد هذه الآية فظاهر ان أكثره نزل في أثناء السفر ومنه مانزل بعده كما سنوضحه

وأما وجه اتصال الآية بما قبلها فهو أنه تعالى لما وبخ الله المؤمنين على التثاقل عن النفر لما استنفرهم الرسول ﷺ قفى عليه ببيان حكم النفير العام، الذي يوجب القتال على كل فرد من الافراد بما استطاع، ولا يعذر فيه أحد بالتخلف عن الاقدام، وترك طاعة الامام، فقال

﴿ انفروا خفافاً وثقالا ﴾ الخفاف بالكسر جمع خفيف والثقال جمع ثقيل. والخفة والثقل يكونان بالاجسام وصفاتها من صحة ومرض، ونحافة وسمن، وشباب وكبر، ونشاط وكسل، ويكونان بالاسباب والاحوال كالقلة والكثرة في المال والعيال، ووجود الظهر (الراحلة) وعدمه، وثبوت الشواغل وانتفائها. فاذا أعلن النفير العام وجب الامتثال الا في حال العجز التام، وهو ما بينه تعالى في الآية ٩١ من هذا السياق (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) الآية، وعذر القسم الثالث مشروط بما اذا لم يجد الامام أو نائبه ما ينفق عليه كما ذكر في الآية وسيأتي. وما ورد عن مفسري السلف من تفسير الخفاف والثقال ببعض ما ذكر من الكليات فهو للتمثيل لا الحصر. قال ابن عباس في تفسيرها [illegible] وفي رواية عنه موسرين ومعسرين، وفي رواية ثالثة خفافاً من السلاح أي مقلين منه وثقالا به أي مستكثرين منه. والحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شباناً وشيوخاً. وعطية العوفي: ركباناً ومشاة. وأبو صالح: فقراء وأغنياء. وقال ابن زيد في معناه: الثقيل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته. وقال الحكم بن عيينة: مشاغيل وغير مشاغيل

ومما هو نص في إرادة عموم الاحوال قول أبي أيوب الانصاري ـ وقد شهد المشاهد كلها الا غزاة واحدة: قال الله تعالى (انفروا خفافاً وثقالا) فلا أجدني الا خفيفاً أو ثقيلا. رواه ابن جرير. وروي عن أبي راشد الحراني قال: وافيت المقداد بن الاسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ـ وقد فضل عنها من عظمه ـ يريد الغزو فقلت له: قد أعذر الله اليك، فقال أبت علينا سورة البعوث ـ يعني براءة ـ (انفروا خفافاً وثقالا) وروي عن حيان ابن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو ـ وكان والياً على حمص ـ قبل

الاقسوس الى الجراجمة فرأيت شيخاً كبيراً هِمّاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار، فقلت ياعم قد أعذر الله اليك، قال فرفع حاجبيه عن عينيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً، ألا انه من يحبه الله يبتليه، ثم يعيده فيبقيه، وانما يبتلي الله من عباده من صبر وشكر وذكر، ولم يعبد الا الله عز وجل،

أقول بمثل هذا الفهم للقرآن والاهتداء به فتح سلفنا البلاد، وسادوا العباد وكانوا خيراً لهم من ابناء جلدتهم، والمشاركين لهم في ملتهم. ولم يبق لأحد من أمتنا حظ من القرآن الا تغني بعضهم بتلاوته من غير فهم ولاتدبر، واشتغال آخرين باعراب جمله، ونكت البلاغة في مفرداته وأساليبه، من غير علم ولا عمل بها. ولا فكر ولاتدبر لما أودع من العظات والعبر فيها، فهم يتشدقون بأن (خفافاً وثقالاً) منصوبان على الحال، ولا يرشدون أنفسهم ولا غيرهم الى ما أوجباه على ذي الحال. وقد يذكر من يدعي الفقه فيهم ما قيل من أن الآية منسوخة بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) وهو زعم مخالف للادلة الصحيحة كافة من انه لا تعارض بين الآيتين كما سبق في تفسير [illegible] هذا [illegible] المسلمون ملكهم، وصار أكثرهم عبيداً لاعدائهم [illegible] بقوله:

﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ أي وجاهدوا اعداءكم الذين يقاتلونكم في سبيل الطاغوت من الظلم والفساد في الارض، ببذل أموالكم وأنفسكم في سبيل الله الموصلة الى الحق وإقامة ميزان العدل. فمن قدر على الجهاد بماله ونفسه معاً وجب عليه الجهاد بهما، ومن قدر على احدهما دون الآخر وجب عليه ما كان في قدرته منهما. كان المسلمون في الصدر الاول ينفق كل على نفسه في القتال، ومن كان عنده فضل من المال بذل منه في تجهيز غيره كما فعل عثمان (رض) في تجهيز جيش العسرة في هذه الغزوة، وكما فعل غيره من اغنياء الصحابة (رض) وهكذا يفعل أهل نجد الآن

ولما صار بيت المال غنياً بكثرة الغنائم صار الائمة والسلاطين يجهزون الجيش من بيت المال. والأئمة الذين يدخرون المال لاجل القتال وينفقون على طائفة من الناس طول السنة لتكون مستعدة للقتال كلما استنفرت له. والدول المنظمة تقرر

في كل عام مبلغاً معيناً من المال في ميزانية الدولة للنفقات الحربية من برية وبحرية وهوائية . وإذا وقعت الحرب يزيدون في هذه المبالغ ، ويجددون لها كثيراً من الضرائب ، بل يجعلون جميع أموال الدولة والامة ومصالحها ومرافقها تحت تقوذ قواد الحرب يتصرفون فيها بالنظام لا بالاستبداد، والمسلمون أولى منهم بكل ماذكر

﴿ ذلكم خير لكم ﴾ أي ذلكم الذي أمرتم به من النفر والجهاد الذي هو أبعد مرامي الامم في حفظ حقيقتها ، وعلو كلمتها ، وتقرير سياستها — خير لكم في دنياكم وآخرتكم، أي خير في نفسه بصرف النظر عن مقابله، أو خير من القعود والتخلي عنه ، أما الدنيا فلا حياة للامم فيها ولا عز ولا سيادة الا بالقوة الحربية والقعود عن القتال عند الحاجة اليه يغري الاعداء بالقاعدين العاجزين ، وحب الراحة يجلب التعب، وأما الآخرة فلا سعادة فيها الا لمن ينصر الحق ، ويقيم العدل ويتحلى بالفضائل ، ويتخلى عن الرذائل ، باتباع الدين القويم ، والعمل بالشرع العادل الحكيم ، ولا يكونوا الا [illegible] وقدرتها على حفظ سيادتها وسلطانها بقوتها ، كما تقدم التفصيل في تفسير الآيات الكثيرة من سورة الانفال ولا سيما (٨: ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)* وفي أوائل هذه السورة

﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ أي ان كنتم تعلمون حقية هذه الخيرية علماً إذعانياً يبعث على العمل . وجواب إن محذوف دل عليه ماقبله أي يكن خيراً لكم، ويقدره بعضهم أمراً بالامتثال أي فانفروا وجاهدوا . وقد علم تلك الخيرية وامتثل هذا الامر المؤمنون الصادقون ، واستأذن بعض المنافقين النبي ﷺ في التخلف فأذن لهم على ضعف أعذارهم ، وتخلف منهم ومن المؤمنين أناس آخرون فأنزل الله في الجميع الآيات الآتية في أثناء السفر

(٤٢) لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ

*) راجعها في ص ٦٠ ج ١٠ تفسير

يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ

كان دأب المؤمنين وعادتهم إذا استنفرهم الرسول ﷺ للقتال أن ينفروا بهمة ونشاط ، ولما استنفرهم لغزوة تبوك تثاقلوا لما تقدم من الاسباب ، وللتثاقل درجات تختلف باختلاف قوة الايمان وضعفه ، ويسر الاسباب وعسرها، وكثرة الاعذار وقلتها ، ولكن نفر الاكثرون طائعين ، وتخلف الاقلون عاجزين . وأما المنافقون فقد كبر عليهم الامر ، وعظم فيهم الخطب ، وطفقوا ينتحلون الاعذار الواهية ، ويستأذنونه ﷺ في القعود والتخلف فيأذن لهم ، فكان نزول هذه الآيات وما بعدها لبيان تلك الحال وأحكام تلك الوقائع . وهي لا تفهم إلا بمعرفة أسبابها ، كما كان يعرفها من وصفت منهم وعظتهم وفيما بينهم . ومن حكمة الله تعالى في هذا الاسلوب أن يضطر المؤمنون بعد ذلك العصر إلى البحث عن تاريخه ليستبينوا به على [illegible] لا [illegible] نشأتهم وتدينهم وسياسة ملتهم وصفة تكوين [illegible] حقيقتها كمعرفة تاريخها .

﴿ لو كان عرضا قريبا وسفراً قاصداً لاتبعوك ﴾ أي لو كان ما استنفرتهم له ودعوتهم اليه أيها الرسول عرضا ــ وهو ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع ، مما لا ثبات له ولا بقاء ــ قريب المكان او المنال ، ليس في الوصول اليه كبير عناء ، وسفراً قاصداً (١) أي وسطا لا مشقة فيه ولا كلال " لاتبعوك فيه ، وأسرعوا بالنفر اليه ، لان حب المنافع المادية والرغبة فيها لاصقة بطبع الانسان ، وناهيك بها إذا كانت سهلة الأخذ قريبة المنال ، وكان الراغب فيها من غير الموقنين بالآخرة وما فيها من الاجر العظيم للمجاهدين ، كاولئك المنافقين ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ التي دعوا اليها وهي تبوك ــ والشقة الناحية او المسافة والطريق التي لا تقطع إلا بتكبد المشقة

(١) يقال سير قاصد وسفر قاصد ، وليلة قاصدة وليال قواصد ، أي هينة السير ، من القصد وهو الاعتدال ، يوصف به الفعل وزمانه ، وهو في الاصل وصف للفاعل ، وفي وصايا لقمان لابنه من التنزيل (واقصد في مشيك)

والتعب — وكبر عليهم التعرض لقتال الروم في ديار ملكهم ، وهم أكبر دول الارض الحربية فتخلفوا جبنا وحبا بالراحة والسلامة ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي وسيحلفون لكم بالله بعد رجوعكم اليهم ، كما قال في آية أخرى ستأتي (يعتذرون اليكم إذا رجعتم اليهم) قائلين ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو استطعنا الخروج الى الجهاد بانتفاء الاعذار المانعة لخرجنا معكم "[1] فاننا لم نتخلف عنكم الا مضطرين

﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ بامتهان اسم الله تعالى بالحلف الكاذب لستر نفاقهم واختلاقه يؤيدون الباطل بالباطل ، ويدعمون الاجرام بالاجرام ، أو بالتخلف عن الجهاد المفضي الى الفضيحة ، وماتقتضيه من سوء المعاملة ، فالجملة مبينة لحالهم في حلفهم أو ما كان سببا له ، وانهم يريدون به النجاة فيقعون في الهلاك ﴿ والله يعلم انهم لكاذبون ﴾ في زعمهم انهم لو استطاعوا الخروج لخرجوا معكم

﴿ عفا الله عنك ﴾ العفو التجاوز عن الذنب او التقصير وترك المؤاخذة عليه ويستعمل بمعنى الدعاء ... باستئذانك ... الرسول حين استأذنوك وكذبوا عليك في الاعتذار ﴿ لم أذنت لهم ﴾ أي لأي شيء أذنت لهم بالقعود والتخلف كما أرادوا ، وهلا استأنيت وتريثت بالاذن ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ في الاعتذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ فيه ، أي حتى تميز بين الفريقين فتعامل كلا بما يليق به ، وذلك أن الكاذبين لا يخرجون سواء أذنت لهم أم لم تأذن لهم ، فكان مقتضى الحزم أن تتلبث في الاذن أو تمسك عنه اختبارا لهم . روى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) قال هم ناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا وان لم يأذن لكم فاقعدوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله (والله يعلم انهم لكاذبون) قال لقد كانوا يستطيعون الخروج ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة في الجهاد .

(١) قيل ان هذا ساد مسد جوابي القسم والشرط ، وقيل انه جواب القسم وجواب لو محذوف ، كما هو الشأن في تقدم القسم على الشرط . ومذهب ابن مالك انه جواب لو وهي مع جوابها جواب القسم

هذا وان بعض المفسرين كالزمخشري قد أساؤا الادب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله ﷺ في هذه الآية، وكان يجب أن يتعلموا منها أعلى الادب معه صلوات الله وسلامه عليه، إذ اخبره ربه ومؤدبه بالعفو قبل الذنب، وهو منتهى التكريم واللطف، وبالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فارادوا أن يثبتوا أن العفو لا يدل على الذنب، وغايته أن الاذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الاولى، وهو جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاص في معنى الذنب وهو المعصية وما كان ينبغي لهم أن يبرحوا من اثبات ما أثبته الله تعالى في كتابه تمسكا باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ولمدلول اللغة أيضا، فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضررا او فوت منفعة او مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابة، وليس مرادفا للمعصية بل أعم منها، والاذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين، وقد قال تعالى (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) الآية

فالتفصي من [illegible] المذاهب والقواعد كالتفصي مما وصف [illegible] والاستواء على العرش وغيرهما من الصفات وهو يستلزم جعل بيان نظار المتكلمين لحقائق دين الله أفصح وأبين وأولى بالتدين من كتاب الله عز وجل الذي وصفه بأنه تبيان لكل شيء، ولو قيل: ان لازم المذهب مذهب مطلقا وإن لم يفطن له صاحب المذهب ويلتزمه كما يقوله الذين يكفرون كثيراً من المخالفين لهم لجاز الحكم بكفر هؤلاء المتأولين المحرفين، ولكن أهل الحق من علماء السلف يمتنعون من الحكم بالكفر على الشخص المعين، فيما يتأول فيه مما هو كفر في نفسه، ويعدون من العذر بالجهل ما لا يعدونه المتكلمون عذرا

وقد كان الاذن المعاتب عليه اجتهاداً منه ﷺ فيما لا نص فيه من الوحي، وهو جائز وواقع من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه، وانما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي وبيانه والعمل به، فيستحيل على الرسول أن يكذب او يخطئ، فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل، ويؤيده

حديث طلحة في تأبير النخل إذ رآهم ﷺ يلقحونها فقال « ما أظن يغني ذلك شيئا » فأخبروا بذلك فتركوه ظنا منهم أن قوله هذا من أمر الدين فنفضت النخل وسقط ثمرها ، فأخبر بذلك فقال ﷺ « ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل » رواه مسلم

وقد صرح علماء الاصول بجواز الخطأ في الاجتهاد على الانبياء (ع . م) قالوا ولكن لا يقرهم الله على ذلك بل يبين لهم الصواب فيه . ومنه ما تقدم في سورة الانفال من عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ في أخذ الفدية من أسارى بدر[1] والخطأ هنالك أعظم مما هنا ، فغاية ما فيه هنا انه مخالف لما يقتضيه الحزم ، وكان من لطف الرب اللطيف الخبير ، برسوله البشير النذير أن أخبره بالعفو عنه ، قبل بيانه له ، وأما ذاك فقد بدأ عتابه له وللمؤمنين الذين عمل برأي جمهورهم في أخذ الفدية بقوله (٨ : ٦٧ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) ثم بين انه كان مقتضيا لعذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعا منه ، وقد ذكر فائدة أمثال هذا الاجتهاد والخطأ في تفسير الآية ٤٧ وهي قريبة

ومن مباحث البلاغة في الآية نكتة الاختلاف في التعبير عن الصادقين والكاذبين إذ عبر عن الاولين بالاسم الموصول بالفعل الماضي ، وعن الكاذبين باسم الفاعل وقد بين ذلك ابو السعود بقوله . وتغيير الاسلوب بأن عبر عن الفريق الاول بالموصول الذي صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام ، للإيذان بأن ما ظهر من الاولين صدق حادث في أمر خاص غير مصحح لنظمهم في سلك الصادقين ، وأن ما صدر من الآخرين وان كان كذبا حادثا متعلقا بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ناشيء عن رسوخهم في الكذب ، والتعبير عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم ، لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلي فظهور صدقه انما هو تبين ذلك المدلول وانقطاع احتمال

(١) راجع تفسير الآيات (٨ : ٦٧و٦٨و٦٩ في صفحة ٨٣ ـ ١٠٠ ج ١٠)

نقيضه بعد ما كان محتملا له احتمالا عقليا ، وأما كذبه فأمر حادث لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبينا له بل هو نقيض لمدلوله ، فما يتعلق به يكون علما مستأنفا ، وإسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لا إلى المعلومين ببناء الفعل للمفعول مع إسناد التبين إلى الاولين لما أن المقصود هنا علمه عليه الصلاة والسلام بهم ومؤاخذتهم بموجبه بخلاف الاولين حيث لا مؤاخذة عليهم. ومن لم ينتبه لهذا قال حتى يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه . وإسناد التبين إلى الاولين وتعليق العلم بالآخرين - مع أن مدار الاسناد والتعلق أولا وبالذات هو وصف الصدق والكذب كما أشير اليه - لما أن المقصد هو العلم بكلا الفريقين ، باعتبار اتصافهما بوصفيهما المذكورين، ومعاملتهما بحسب استحقاقهما ، لا العلم بوصفيهما بذاتيهما ، أو باعتبار قيامهما بموصوفيهما ، اه

(٤٤) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٥) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٦) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

ذكر البغوي وغيره عن ابن عباس (رض) انه قال لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والظاهر أن مراده لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شؤونهم بمثل ما في هذه السورة من التفصيل كما قال الله له في الذين مردوا على النفاق (لا تعلمهم نحن نعلمهم) وسيأتي في هذا السياق . إذ من المعلوم أن ذكر المنافقين وبعض صفاتهم وأقوالهم وأفعالهم جاءت في عدة سور نزلت قبل سورة براءة منها سور المنافقين والاحزاب والنساء والانفال والقتال والحشر ، وأما سورة براءة فهي الفاضحة لهم والكاشفة لجميع أنواع نفاقهم الظاهرة والباطنة

وهذه الآيات أول السياق في هذا البيان للتفرقة بينهم وبين المؤمنين في أمر القتال ، ولعله ﷺ لم يعلم ذلك الا بعد نزولها . قال عز وجل

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ هذا نفي للشأن يراد به بيان الواقع في نفسه فلا يلاحظ في الفعل فيه الزمان الحاضر أو المستقبل الذي وضع له المضارع بل يشملها كما يشمل الماضي ، كما تقول الصائم لا يغتاب الناس ، والذي يزكي لا يسرق ، أي هذا شأن كل منهما ، فالمعنى انه ليس من شأن المؤمنين بالله الذي كتب عليهم القتال ، واليوم الآخر الذي يكون فيه الاجر الأكمل على الاعمال ، ولا من عادتهم أن يستأذنوك أيها الرسول في أمر الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا عرض المقتضي له ، لان هذا من لوازم الايمان التي لا تتوقف على الاستئذان (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون) وإذا لم يكن من شأنهم ان يستأذنوا في الجهاد [illegible] من غير استئذان لما تقدم آنفا ، بل هم يستعدون [illegible] الخيل من استطاع ذلك منهم ، فهل يكون من شأنهم أن يستأذنوه في القعود بعد إعلان النفير العام له ؟ كلا ان أقصى ما قد يقع من بعضهم التثاقل والبطء في مثل هذا السفر البعيد

ويحتمل ان يكون المعنى لا يستأذنك هؤلاء المؤمنون في القعود والتخلف كراهة ان يجاهدوا في سبيل الله فان الجهاد لا يكرهه المؤمن الصادق الذي يرجو الله والدار الآخرة ، ويعلم ان عاقبة الجهاد الفوز بإحدى الحسنيين : الغنيمة والنصر ، او الشهادة والاجر ، وانما قد يستأذن صاحب العذر الصحيح منهم وهم الذين قبل الله عذرهم وأسقط الحرج عنهم في الآيتين (٩١ و ٩٢) روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة او فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه » الخ يعني رجلا اعد فرسه رباطا في سبيل الله كلما سمع هيعة اي صيحة لقتال او في قتال او فزعة اي دعوة للاغاثة والنصر فيه طار على فرسه يبتغي القتل والموت في مظانه اي المواضع التي يظن انه يلقى القتل والموت فيها

﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ له باجتناب ما يسخطه وفعل ما يرضيه ونبههم فيه وانه ليس من شأنهم ان يستأذنوا بالتخلف كراهة للقتال، فهم يجزيهم وصفهم، وقد استنبط من الآية انه لا ينبغي الاستئذان في أداء شيء من الواجبات ، ولا في الفضائل والفواضل من العادات، كقرى الضيوف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف ، ويعجبني قول بعض العلماء ما معناه : من قال لك تأكل أهل آتيك بكذا من الفاكهة أو الحلوى مثلا ؟ فقل له لا ، فانه لو أراد أن يكرمك لما استأذنك

﴿ انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ هذا الصريح بمفهوم ما سبق زيادة تأكيد وتقرير ، وجاء الحصر فيه بانما التي موضعها ما هو معلوم بالجملة لان المعنى قد علم من مفهوم الحصر بالنفي والاثبات الذي قبله[1] والمعنى انما يستأذنك في التخلف عن الجهاد الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر لانهم يرون بذل المال للجهاد مغرما يفوت عليه بعض منافعهم به ولا يرجون عليه ثوابا كما يرجو المؤمنون، ويرون جهاد بالنفس إلقاء بها في التهلكة وتعرضا للقتل الذي ليس بعده حياة عندهم، فطبيعة كفرهم بالله واليوم الآخر تقتضي كراهتهم للجهاد وفرارهم منه ما وجدوا لهم سبيلا، بضد ما يقتضيه إيمان المؤمنين كما تقدم ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ اي وقد وقع لهم الريب والشك في الدين من قبل، فلم تطمئن به قلوبهم ، ولم تذعن له نفوسهم ، وانما الايمان هو اليقين المقارن للاذعان وخضوع النفس ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ متحيرين في امرهم ، مذبذبين في عملهم ، يحسبون كل صيحة عليهم ، فهم يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداؤه من عبادات الاسلام ، فاذا عرض لهم ما يشق عليهم فعله ضاقت به صدورهم ، والتمسوا التفصي منه بما استطاعوا من الحيل والمعاذير الكاذبة ، حتى انه كان يشق عليهم حضور صلاة الفجر والعشاء كما ورد في الصحيح . وسيأتي في بيان فضائحهم (لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون) وقد ورد في بعض الروايات ان عدد هؤلاء المنافقين كان تسعة وثلاثين رجلا ، ولعل المراد المستأذنون أو المتخلفون منهم

(١) راجع هذا الفرق بين الحصرين في ص ١٥٩ ج ٨ تفسير

روي عن ابن عباس ان هذه الآية منسوخة بآية سورة النور (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم ان الله غفور رحيم)والجمهور على أنها محكمة ، وما ارى هذا الرأي يصح عن ابن عباس،فان سورة النور نزلت قبل هذه السورة بالاتفاق،وموضوع الاستئذان فيها غير موضوعه هنا وإلا كانتا متناقضتين، فآية براءة في الاستئذان بالتخلف عن الجهاد والقعود عنه بعد النداء بالنفير العام، وآية النور في استئذان من يكون مع النبي ﷺ على امر جامع كالجمعة والعيدين — ولَيْس منه الجهاد — ويعرض لأحدهم حاجة يريد قضاءها والعودة إلى الجماعة ، فكان بعضهم لايرى بذلك بأسا كالذين كانوا مجتمعين معه ﷺ لصلاة الجمعة فجاءت العير بالتجارة فانفضوا اليها وتركوه قائما يخطب ليس معه إلا اثنا عشر منهم ابو بكر وعمر وجابر الذي أخرج الشيخان والترمذي وغيرهم هذا الحديث عنه ، وفي رواية [illegible] انه بقي معه سبعة عشر رجلا وسبع نسوة [illegible] الآيات في آخر سورة الجمعة فصار المؤمنون بعد ذلك لا يخرجون من حضرة النبي ﷺ لحاجة تعرض لهم إلا إذا استأذنوه وأذن لهم ، ولهذا قال الله تعالى في آية براءة (لايستأذنك الذين يؤمنون بالله) الآية . والعجب من المفسرين الذين نقلوا هذه الرواية عن ابن عباس كيف سكتوا عن بيان هذا من سلم منهم القول بالنسخ ومن لم يسلمه ؟

وحكى الرازي عن أبي مسلم الخراساني في قوله تعالى (لم أذنت لهم) انه ليس فيه مايدل على أن ذلك الاذن فيماذا ، فيحتمل أن بعضهم استأذن في القعود فأذن له ، ويحتمل أن بعضهم استأذن في الخروج فأذن له ، مع انه ما كان خروجهم منه صوابا لأجل انهم كانوا عيونا للمنافقين على المسلمين، فكانوا يثيرون الفتن ويبغون الغوائل ، فلهذا السبب ما كان خروجهم مع الرسول مصلحة . قال القاضي هذا بعيد لان هذه الآية نزلت في غزوة تبوك على وجه الذم للمتخلفين والمدح للمبادرين ، وايضا ما بعد هذه الآية يدل على ذم القاعدين وبيان حالهم انهم ما تقلبوا

الرازي عنه وعن القاضي عبدالجبار في الرد عليه وكلاهما من المعتزلة

وأقول ان هذا الاحتمال الذي ذكره ابومسلم مردود بان الخروج إلى الجهاد ما كان يحتاج إلى إذن بعد إعلان النفير فيستأذنوا له . واما كون خروجهم مفسدة فهو صحيح وسيأتي النص عليه (في الاية ٤٧) ولكن اولئك المستأذنين لم يكونوا يريدون الخروج كما تقدم فكانت المصلحة في عدم الاذن لهم لينكشف سترهم ، فيعرف النبي والمؤمنون كنه أمرهم ، ويثبت هذا قوله تعالى

﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ من الزاد والراحلة وغير ذلك مما يعد لمثل هذا السفر البعيد وكانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا كما دلت عليه الآية ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ الانبعاث مطاوع البعث وهو إثارة الانسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشيء بقوة ونشاط كبعث الرسل ، أو إزعاج كبعث البعير فانبعث ، وبعث الله الموتى ، والتثبيط التعويق عن الامر والمنع منه بالتكسيل أو التخذيل ولم يرد في التنزيل إلا في هذه الآية . والمعنى كره الله نفرهم وخروجهم مع المؤمنين لما يعلم من ضررهم فثبطهم بما أحدث في قلوبهم من الخواطر والمخاوف التي هي مقتضى النفاق ، فلم يعدوا للخروج عدته لانهم لم يريدوه ، وانما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من العصيان ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ في هذا القيل وجوه أحدها انه تمثيل لداعية القعود التي هي أثر التثبيط ، وفي معناه انه أمر قدري تكويني لاخطاب كلامي ، والثاني انه قول الشيطان بالوسوسة ـ والثالث انه قول بعضهم لبعض ـ والرابع انه حكاية لاذن الرسول ﷺ لهم ، وانه قاله بعبارة تدل على السخط لاعلى الرضا ، اذ معناه اقعدوا مع الاطفال والزمنى والعجزة والنساء ، فأخذوه على ظاهره لموافقته لمرادهم

ويحتج المجبرة ومنهم الاشعرية على المعتزلة بهذه الآية ونحوها ، وغيرهم هؤلاء بأنها لا تنافي وجوب مراعاة المصالح وتحسين العقل وتقبيحه ، ومذهبنا في أمثالها انها بيان لسنة الله تعالى في ترتيب الاعمال الاختيارية على ما يبعث عليها من العقائد والصفات النفسية ، وموافقة ذلك هنا لحكمته وعنايته تعالى بأمر المؤمنين ، وذلك توفيق

أقدار لأقدار، في ضمن دائرة الاختيار، فلا جبر ولا اضطرار للعبد، ولا وجوب على الرب، فالحكمة والرحمة وما في شرعه من اعتبار المصالح مما يجب له، ولا يجب عليه شيء.

---

(٤٧) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

(٤٨) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ

هاتان الآيتان في بيان حال هؤلاء المنافقين ماتكون عليه لو خرجوا والتذكير بما كان من أحوالهم السابقة الدالة على ذلك. قال عز وجل ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ﴾ هذا انتقال من خطاب الرسول ﷺ في أمرهم إلى خطاب جماعة المؤمنين الذين معه يقولون لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود في جماعتكم أيها المؤمنون مازادوكم شيئا من الأشياء إلا خبالا، أي اضطرابا في الرأي، وفسادا في العمل، وضعفا في القتال، وخللا في النظام فإن الخبال كما قال الراغب هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون، والمرض المؤثر في العقل والفكر. والمراد مازادوكم قوة ومنعة وإقداما كما هو شأن القوة العددية المتحدة في العقيدة والمصلحة، بل ضعفا وفشلا ومفسدة كما حصل في غزوة حنين فإن المنافقين ولوا الأدبار في أول المعركة، وتبعهم ضعفاء الإيمان من المؤلفة قلوبهم من طلقاء فتح مكة، فاضطرب لذلك الجيش كله وفسد نظامه، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا روية ولا تدبر، كما هو شأن جماعات البشر في مثل هذه الأحوال

﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ الوضع والإيضاع كما في التاج أهون سير الدواب، وقيل ضرب من سير الإبل دون الشد، وقيل هو فوق الخبب قال الأزهري ويقال: وضع الرجل إذا عدا أي أسرع وهو مجاز، ويقال أوضع راحلته، وخلال الأشياء

مايفصل بينها من فروج ونحوها ، ولمشي ولا وضعوا ركائبهم – أو – ولا سرعوا في الدخول في خلالكم وما بينكم سعيا بالنميمة وتفريق الكلمة ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ اي حال كونهم يبغون بذلك ان يفتنوكم بالتشكيك في الدين والتثبيط عن القتال ، والتخويف من قوة الاعداء ، ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ اي وفيكم اناس من ضعفاء الايمان او ضعفاء العزم والعقل كثيرو السمع لهم ، لاستعدادهم لقبول وسوستهم . وقيل اناس نمامون يسمعون لاجلهم ما يعنيهم من اقوالكم فيلقونها اليهم ، وهو بعيد وان رجحه الطبري وقدمه الزمخشري ، وسماع صيغة مبالغة لا تختص بما قاله الطبري فيها ، فان اولئك المنافقين الذين استأذنوا لم يكونوا معروفين متميزين بحيث تكون لهم هيئة مجتمعة تتخذ الجواسيس لتنظيم عملها

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ من هؤلاء وغيرهم ، اي محيط علما بذواتهم وسرائرهم واعمالهم ما تقدم منها وما تأخر ، وبما هم مستعدون له في كل حال مما وقع ومما لم يقع إن عرض [illegible] المؤمنين لو خرجوا فيهم الا خبالا [illegible] يغرونهم بعداوة النبي ﷺ ويعدونهم بنصرهم عليه الذي حكاه عنهم في سورة الحشر وكذبهم فيه بقوله (لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لاينصرون) فأحكامه تعالى فيهم على علم تام ، ليس فيها ظن ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول في الاذن لهم ، الذى تثبت هذه الآية نفسها انه مبني على أصل صحيح ، وهو ان خروجهم شر لا خير ، وضعف لا قوة ، ولكنه لم يكن ﷺ يعلم انهم لايخرجون اذا لم يأذن لهم ، لان هذا من الغيب الذى لا يعلمه الا الله ومن اعلمه الله ، ولم يعلمه تعالى بذلك قبل نزول هذه الآيات

فاجتهاده صلوات الله وسلامه عليه فيهم كاجتهاده في الاعراض عن الاعمى (عبد الله بن ام مكتوم) عند ما جاءه وهو يدعو اكابر رجال قريش الى الاسلام وقد لاح له بارقة رجاء في ايمانهم بتحدثهم معه ، فانه ﷺ علم ان اقباله عليه ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوتهم ، وكان يرجو بايمانهم انتشار الاسلام في جميع

العرب، فتولى عنه وتلهى بهذه الفكرة ، ولم يكن يعلم قبل اعلام الله تعالى ان سنته في البشر ان يكون اول من يتبع الانبياء والمصلحين فقراء الامم وأوساطها، دون اكابر مجرميها المترفين الذين يرون في اتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم، ومساواتهم لمن دونهم الخ فيكفرون عنادا ، ويجحدون بآيات الله استكباراً لا اعتقادا

وكان من حكمة الله عز وجل في تربية رسوله وتكميله ان يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده الشخصي البشري فيها لتكون اوقع في نفسه وأنفس أتباعه فيحرصوا على العمل بمقتضاها، ولا يبيحوا لانفسهم تحكيم آرائهم واهوائهم فيها ، وكذلك كان سلفنا الصالحون الذين اورثهم الله بهداية كتابه وسنة رسوله الارض من بعد اهلها ، فخلف من بعدهم خلف تركوها ، فغلب عليهم الجهل والنفاق، فسلبهم ذلك الملك العظيم ، فهل يفقه اهل عصرنا ويعتبرون ؟ ومتى يتدبرون ويهتدون ؟

﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ أي تالله لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين من قبل هذه [illegible] وأبرزه ما كان في غزوة أحد (٣: ١٢٢ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) وذلك أنهم لما خرجوا الى أحد اعتزلهم عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين بنحو ثلث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد وطفق يقول لهم في النبي ﷺ : أطاعهم وعصاني وفي رواية : أطاع الولدان ومن لا رأي له، فاندري علام نقتل أنفسنا ههنا؟ وكان رأي ابن أبي لعنه الله عدم الخروج إلى أحد، ورأي الجمهور – ولاسيما الشبان – الخروج فعمل ﷺ برأي الاكثر على انه كان خلاف رأيه أيضا ، فرجع ابن ابي بمن اتبعه من المنافقين وكاد يفشل بنو سلمة من الاوس وبنو حارثة من الخزرج بقوله وفعله، فعصمهما الله تعالى من الفتنة بفضله، وذلك قوله تعالى (والله وليهما) وتقدم تفصيل ذلك في الكلام على غزوة أحد من الجزء الرابع

﴿ وقلبوا لك الامور ﴾ اي دبروا لك الحيل والمكايد ، ودوّروا الآراء في كل وجه من وجوهها لابطال دينك، وفض قومهم من حولك، فان تقليب الشيء تصريفه في كل وجه من وجوهه ، والنظر في كل ناحية من انحائه، ليعلم أيها الاولى

بالاختيار . وما زال لهؤلاء المنافقين ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين، في كل ماعملا من عداوتك وقتال المؤمنين ﴿ حتى جاء الحق ﴾ بالنصر الذي وعدك به ربك و كانوا به يمترون ، ﴿ وظهر امر الله وهم له كارهون ﴾ اي ظهر دين الله على الدين كله بالتنكيل باليهود الغادرين، والنصر على المشركين ، وإبطال الشرك بفتح مكة ودخول الناس في الاسلام أفواجا ، وهم كارهون لذلك ، حتى كانوا بعد الفتح يمنون انفسهم بظهور المشركين على المؤمنين في حنين

وقد روى ابن جرير الطبري في تفسير الآية من طريق ابن اسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم كل قد حدث في غزوة تبوك مابلغه عنها وبعض القوم يحدث مالم يحدث بعض وكل قد اجتمع حديثه في هذا الحديث: ان رسول الله ﷺ امر اصحابه بالتهيؤ لغزو الروم وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد وحين طاب الثمار ، وأحبت الظلال والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص عنها على الحال من الزمان الذي هم عليه وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها (١) واخبر انه يريد غير الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لبعد الشقة، وشدة الزمان، و كثرة العدو الذي صمد له، ليتأهب الناس لذلك اهبته فأمر الناس بالجهاد وأخبرهم انه يريد الروم ، فتجهز الناس على مافي انفسهم من الكره لذلك الوجه لما فيه مع ماعظموا من ذكر الروم وغزوهم، ثم ان رسول الله ﷺ جد في سفره فأمر الناس بالجهاز والانكماش (٢) وحض اهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبدالله بن أبي بن سلول عسكره على ذي حدة أسفل منه نحو ذباب جبل بالجبانة اسفل من ثنية الوداع ، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف

(١) هذا خطأ فانه انما كان يكني للتعمية وما كان يخبر بغير الحق (٢) الانكماش هنا الاسراع في الامر والجد فيه

من المنافقين وأهل الريب ، وكان عبد الله بن أبي أخا بني عوف بن الخزرج ، وعبد الله بن نبتل أخا بني عمرو بن عوف ، ورفاعة بن يزيد بن التابوت أخا بني قينقاع ، وكانوا من عظماء المنافقين ، وكانوا ممن يكيد الاسلام وأهله ، قال وفيهم ـ كما ثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري ـ أنزل الله (لقد ابتغوا الفتنة من قبل) الآية اه وأول هذا التلخيص موافق لما لخصناه من قبل وبقيته ذكره عن ابن أبي فيه مبالغة أشار الطبري إلى عدم ثقته بها بقوله [فيما يزعمون] وتقدمت رواية من قال ان المتخلفين ٣٦ رجلا

وزعم بعض المفسرين ان المراد بالفتنة في هذه الآية محاولة المنافقين اغتيال رسول الله ﷺ عند خروجهم هذا والصواب ان هذه الحادثة وقعت في أثناء العودة من تبوك وهي المشار اليها في آية (٧٤ وهموا بما لم ينالوا) وسيأتي بيانها

(٤٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٠) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥١) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥٢) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ

هذا شروع في بيان حال أناس من أولئك المنافقين بأقوال قالوها فيما بينهم جهراً ، وأمور أكنوها في أنفسهم سراً ، وأقوال سيقولونها ، وأقسام سيقسمونها ، وأعذار سيعتذرونها غير ما سبق منهم ، وشؤون عامة فيهم ـــ أكثرها من أنباء الغيب ـــ مع ما يتعلق بذلك ويناسبه من الحكم والاحكام ، والعقائد والآداب ، قال عز وجل

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ هذا بيان لأول استئذان معين وقع من أولئك المنافقين في التخلف واتفقت الروايات على أن جد بن قيس من شيوخهم قال هذا في أول عهد الدعوة للغزوة وأثناء التجهيز للسفر ، وروي ان غيره منهم قال لما دعاهم الى تبوك : انه ليفتنكم بالنساء . أخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وابو نعيم في المعرفة عن ابن عباس (رض) قال لما أراد النبي ﷺ أن يخرج الى غزوة تبوك قال لجد بن قيس « ماتقول في مجاهدة بني الاصفر ؟ قال اني أخشى ان رأيت نساء بني الاصفر ان افتتن ، فائذن لي ولا تفتني . وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله (رض) قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس « ياجد هل لك في جلاد بني الاصفر؟ قال جد: أتأذن لي يارسول الله فاني رجل أحب النساء واني أخشى ان أنا رأيت نساء بني الاصفر ان افتتن . فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه « قد أذنت لك » فأنزل الله الآية وقد عبر عن قوله بالفعل المضارع لاستحضار تلك الحال [illegible] ، فان مثله في نفاقه لايخشى على نفسه إثم الافتتان [illegible] وهو يجهل [illegible] بل شأن ذلك أن يكون [illegible] وشبهة من وافقه عليها ورددوا معناها بقوله ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ بدأ الرد على قائل هذا القول بأداة الافتتاح (ألا) المفيدة للتنبيه والتأمل فيا بعدها وتحقيق مضمونه ان كان خبراً لتوجيه السمع والقلب له ، وعبر عن افتتانهم بالسقوط في الفتنة المبالغة وقدم الظرف « في الفتنة » على عامله « سقطوا » للدلالة على الحصر ، يقول ألا فليعلموا انهم قد قالوا وتردوا بهذا القول في هاوية الفتنة بأوسع معانيها ، لا في شيء آخر من شبهاتها اوما شابهها من حيث يزعمون اتقاء التعرض لشبهة نوع من أنواعها وهو الاثم بالنظر الى جمال نساء الروم واشتغال القلب بجمالهن ، فتردوا في شر مااعتذروا به .

﴿ وان جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ هذا وعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها وضع فيه المظهر موضع ضميرهم للنص على أن عقابهم باحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار الذي هو ذنب في نفسه كان أقصى عقابه

مس النار دون إحاطتها لو لم يكن سببه الكفر وتكذيب الرسول فيما جاء به من حكم الجهاد وثوابه والمعاقب على تركه، أو الشك في ذلك، وقلما يكون الكفر إلا شكا أو ظنا، فإن رأيت صاحبه موقنا فيه فاعلم أن يقينه سكون النفس اليه عن جهل لا عن علم، والمراد أن جهنم ستكون محيطة بهم جامعة لهم يوم القيامة، وإنما عبر عن ذلك باسم الفاعل الدال على الحال لإفادة تحقق ذلك حتى كأنه واقع مشاهد، ويحتمل أن يقال إنها محيطة بهم الآن لأن أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها قاله الزمخشري، وإنما تحيط النار بمن أحاطت به خطاياه حتى لا رجاء في توبته (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

﴿إن تصبك حسنة تسؤهم﴾ المتبادر أن هذا إخبار عن شأنهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، والحسنة كل ما يحسن وقعه ويسر من غنيمة ونصرة ونعمة، أي أنه يسوءهم كل ما يسرك من كالسلامة والنصر في بدر وغيرها من الغزوات

﴿وإن تصبك مصيبة﴾ أي نكبة وشدة كالذي وقع في غزوة أحد ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي قد أخذنا أمرنا بالحزم والحذر الذي هو دأبنا من

قبل وقوعها إذ تخلفنا عن القتال، ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك ﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ أي وينصرفوا عن الموضع الذي يقولون فيه هذا القول عند بلوغهم خبر المصيبة إلى أهليهم أو يعرضوا عنك بجانبهم وهم فرحون فرح البطر والشماتة لأنهم أعدى أعدائك كما يدل عليه الحصر في آية (هم العدو فاحذرهم)

وقد ورد في التفسير المأثور ما يدل على أن الآية خبر عن مستقبل الامر في غزوة تبوك. روى ابن جرير عن ابن عباس (رض) قال إن تصبك في سفرك هذا الغزوة تبوك حسنة تسؤهم، قال: الجد وأصحابه. وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله (رض) قال جعل المنافقون الذين تخلفوا في المدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب خبرهم وعافية النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك، فأنزل الله تعالى (إن تصبك حسنة تسؤهم) الآية. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في الآية

قل إن أظفرك الله وردك سالما ساءهم ذلك وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا في القعود قبل أن تصيبهم . والاول أبلغ وهو يشمل هذا وغيره

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين الذين تفرحهم مصيبتك ، وتسوءهم نعمتك وغنيمتك ، لن يصيبنا إلا ما كتبه الله وأوجبه لنا بوعده في كتابه ، وتقديره النظام سننه في خلقه ، من نصر وغنيمة وتمحيص وشهادة وضمان لحسن العاقبة ﴿ هو مولانا ﴾ أي هو وحده مولانا يتولانا بالتوفيق والنصر ، ونتولاه بالالتجاء اليه ، والتوكل عليه ، فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمة ، وقد قال لنا في وعده (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) وقال في بيان سنته في عاقبة أهل بيته (أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) وقال في سنته في العواقب (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أمر مبني على ما قبله أي وإذ كان الله هو مولاهم فحق عليهم أن يتوكلوا عليه وحده دون غيره ، مع القيام بما أوجبه عليهم في شرعه ، والاهتداء بسننه في خلقه ، ومنها ما أخبرهم به من أسباب النصر المادية والمعنوية التي فصلها في سورة الانفال وغيرها كاعداد ما استطاع الامة من قوة ، واتقاء التنازع الذي يولد الفشل ويفرق الكلمة ، وذلك بأن يكلوا اليه توفيقهم لما يتوقف عليه النجاح وتسهيل أسبابه التي لم يصل اليها كسبهم ، وما أجهل من يظن أن التوكل وكتابة المقادير ، يقتضيان ترك العمل والتدبير ، وقد بسطنا القول في الامرين في مواضع من هذا التفسير (١) ويقابل التوكل عليه تعالى بالمعنى الذي ذكرناه وما أيدناه به من كتاب الله ، اتكال الذين على حولهم وقوتهم وحدها ، حتى إذا ما أدركهم العجز وخانتهم القوة أمام قوة تفوقها ، خانهم الصبر ، وأدركهم اليأس ،

(١) راجع ص ٢٠٧ — ٢١٤ ج ٤ و ٢٧٨ ج ٦ ، و ٥٩٢ و ٦٠٤ ج ٩ تفسير

اذ ليس لهم ما للمؤمنين من التوكل على ذي القوة التي لا تعلوها قوة — وشرمنه اتكال الخرافيين على الأوهام، وتعلق آمالهم بالاماني والاحلام ، حتى اذا ماانكشفت أوهامهم ، وكذبت احلامهم ، وخابت آمالهم ، نكسوا على رءوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، واستكانوا لأعدائهم ، وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين . ووعد الله أصدق من دعواهم الايمان ، وانما وعد بالنصر اولياءه لا أولياء الشيطان

﴿قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين﴾ التربص التمهل في انتظار مايرجى او يتمنى وقوعه ، ومضمون هذا بدل مما قبله او بيان له ، والحسنيان مثنى الحسنى وهي اسم التفضيل المؤنث، والاستفهام للتقرير والتحقيق ، والجملة تفيد الحصر ، أي قل لهم أيضا هل تربصون بنا أيها الجاهلون الا احدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما حسنى العواقب وفضلاها، هما النصرة والشهادة، النصرة المضمونة للجماعة ، والشهادة المكتوبة لبعض الأفراد ؟ أي لاشيء ينتظر لنا غيرهاتين العاقبتين [illegible] ﴿ونحن نتربص بكم﴾ في مقابلة ذلك إحدى [illegible] ﴿[illegible] من عنده او بايدينا﴾ الاولى أن يهلككم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها كما أهلك من قبلكم من الكافرين الذين كذبوا الرسل ، والثانية أن يأذن لنا بقتلكم ، ان اغرا كم الشيطان باظهار كفركم بهذا الاستدراج في الاستمرار على اجرامكم ، كما قال في سياق غزوة الاحزاب (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم) الآيات ـ وحكم الشرع انهم لا يقتلون ماداموا يظهرون الاسلام ، باقامة الشعائر وأداء الاركان ، ولاسيما الصلاة والزكاة . ولم تذكر هاتان العاقبتان لهم بصيغة الحصر كما في المؤمنين لجواز ان يتوبوا عن نفاقهم ويصح إيمانهم ، وقد تاب بعضهم واعترفوا بما كانوا عليه بعد ظهور أمرهم ، كالذين أخبرهم النبي بما اعتزوا به من اغتياله ﷺ ومن المعقول أن يكون أكثر الباقين قد تابوا بعد أن أنجز الله لرسوله جميع ماوعده به ، ووقع ما كانوا يحذرونه من تنزيل سورة تنبئهم بما في قلوبهم، ومنها فضيحته تعالى لزعيمهم الذي مات على كفره . ولو ذكر ذلك في التنزيل

بصيغة الحصر لكان خيراً بخلاف ما سيقع وهو هلاكهم بكفرهم بدون الشرط الذي بيناه ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ أي وإذ كان الامر كذلك فتربصوا بنا ما ذكر من عاقبتنا إنا معكم متربصون ما هو من عاقبتكم، وما يصير اليه أمرنا وأمركم ان أصررتم على كفركم وظهر أمركم، مما نحن فيه على بينة من ربنا ولا بينة لكم

(٥٣) قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٥) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ

هذه الآيات الثلاث في مسألة النفقة في القتال، وهي الجهاد المفروض في المال، ومثلها سائر النفقات في حكم ما يعتورها من الرياء والاخلاص. روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس ان النبي ﷺ لما دعا الجد بن قيس الى جهاد الروم قال: اني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى افتتن ولكن أعينك بمالي، ففيه نزل ﴿ قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم ﴾ وقد ضعف (الطبري) هذا القول بالتعبير عنه بقيل، والحق ان الآية عامة تشمل هذا وغيره، وأنها نزلت مع غيرها من هذا السياق في أثناء السفر لاعقب قول جد بن قيس ما قال. والمعنى قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين: انفقوا ما شئتم من أموالكم في الجهاد او غيره مما أمر الله به في حال الطوع للتقية، أو الكره خوف العقوبة، فمهما تنفقوا في الحالين لن يتقبل الله منكم شيئاً منه، ما دمتم على شك مما جاءكم به الرسول من أمر الدين والجزاء على الاعمال في الآخرة. وقيل معناه ان النبي ﷺ لا يقبله

منهم ماينفقونه ، ولكن هذا لا يصح على اطلاقه في جميعهم ؛ لأن مقتضى اجراء أحكام الشريعة عليهم تقتضي وجوب أخذ زكاتهم ونفقاتهم ، الا أن يوجد مانع خاص في شأن بعضهم ، كما سيأتي في تفسير (ومنهم من عاهد الله) الآيات

قال الامام ابن جرير وتبعه غيره : وخرج قوله (انفقوا طوعا او كرها) مخرج الامر ومعناه الخبر . والعرب تفعل ذلك في الاماكن التي يحسن فيها « ان » التي تأتي بمعنى الجزاء كما قال جل ثناؤه (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم) فهو في لفظ الامر ومعناه الخبر ومنه قول الشاعر

أسيئي بنا او أحسني لاملومة   لدينا ولا مقلية ان تقلت

فكذلك قوله (انفقوا طوعا او كرها) انما معناه : ان تنفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم اهـ ﴿ انكم كنتم قوما فاسقين ﴾ هذا تعليل لعدم قبول نفقاتهم ومعناه ان انفاقكم طائعين او مكرهين سيان في عدم القبول لانكم كنتم قوما فاسقين و (انما يتقبل الله من [illegible]) [illegible] الايمان ، الذي هو شرط لقبول الاعمال مع الاخلاص ، وهو [illegible] في القرآن ، وتخصيصه بالمعاصي من اصطلاح الفقهاء . فليعتبر بهذا منافقو هذا الزمان ، الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، ويعلنون أمرها في صحف الاخبار ، ليشتهروا بها في الاقطار ، ثم بين تعالى ما في هذا التعليل من الاجمال فقال

﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا انهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم شيء من الاشياء إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق ، ومنها الحكمة والتنزه عن العبث في خلق الخلق وهدايتهم وجزائهم على أعمالهم ، وكفرهم برسالة رسوله وما جاء به من البينات والهدى . قرأ الجمهور (تقبل) بالتاء الفوقية وقرأها حمزة والكسائي بالتحتية ، وتأنيث النفقات لفظي لا حقيقي فيجوز تذكير فعله ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ فتملهم لهذين الركنين من أركان الاسلام ، اللذين هما أظهر آيات الايمان ، لا يدل على صحة إيمانهم لانهم يأتونهما رياء وتقية لا ايمانا بوجوبهما ، ولا قصداً إلى

تزكية أنفسهم بما شرعها الله لأجله ، واحتسابا لأجرهما عنده ، أما الصلاة فلا يأتونها إلا وهم كسالى أي في حال الكسل والتثاقل منها ، فلا تنشط لها أبدانهم ، ولا تنشرح لها صدورهم ، وزاد في سورة النساء (يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقد أمر الله المؤمنين بإقامة الصلاة (١) لا بمجرد الإتيان بصورتها ، ووصفهم بالخشوع فيها وهو ينافي الكسل عند القيام إليها ، فعلى كل مسلم أن يحاسب نفسه ليعلم هل صلاته صلاة المؤمنين ، أم صلاة المنافقين ؟

وأما الانفاق في مصالح الجهاد وغيرها فلا يؤتونه إلا وهم كارهون له غير طيبة أنفسهم به ، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم مفروضة عليهم لقوم يماريق المؤمنين وهم يعلمون من أنفسهم أنهم ليسوا منهم ، فلا يرون لهم بها نفعا في الدنيا ولا يؤمنون بنفعها لهم في الآخرة . وما قررناه يندفع إيراد بعضهم أن الكفر وحده كاف في عدم قبول نفقاتهم [illegible] وصفهم بالكسل عند إتيان الصلاة وكره أداء الزكاة وغيرها من [illegible] وفصل الجواب عنه على مذهب المعتزلة أو الأشعرية [illegible] التي ترد عليه بالصلاة والزكاة كما [illegible]

قال الزمخشري (فإن قلت) الكراهية خلاف الطواعية وقد جعلهم الله طائعين في قوله (طوعا) ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون (إلا وهم كارهون) (قلت) المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذلك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار اهـ على أنه فسر الكره في الأولى بالإكراه

والراجح عندي ما قدمته من أن المراد بطوعهم ما كان بقصد التقية لإخفاء كفرهم ، وهو يقتضي كرهه في قلوبهم وعدم إخلاصهم فيه وهو ما أثبته لهم في الآية الثانية بصيغة الحصر ، وحاصله أن المراد بطواعية المصلحة أو الطبع لا طاعة الشرع ، وقد يقال إن الترديد بين الطوع والكره في مثل هذا التعبير لا يقتضي

(١) إقامتها أداؤها مقومة كاملة الأركان والآداب الدينية والقلبية . راجع تفسير (الذين يقيمون الصلاة) في أول سورة البقرة ص ١٢٨، ٥٧ ج ١ تفسير

إثبات وقوع كل منهما ، وانما المراد منه انه مهما يكن الواقع فهي غير مقبولة ، لوجود الكفر المانع من القبول ، ومن أطاع الله ورسوله فيما يسهل عليه وعصاهما فيما يشق فلا يعد مذعنا للامر والنهي لانه حكم الله، ومن لم يكن مذعنا لايكون مؤمنا ، (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) وقد بايع المؤمنون الرسول ﷺ على الطاعة في المنشط والمكره

ولما كان أولئك المنافقون من أولي الطول والسعة في الدنيا كما سيأتي في قوله (٩: ٨٦ استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) وكان ترف الغنى وطغيانه أقوى أسباب إعراضهم عن آيات الله والتأمل في محاسن الاسلام — بين الله تعالى للمؤمنين سوء عاقبتهم فيه فقال

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ الاعجاب بالشيء، أن تسر به سرور راض به فتعجب [illegible] كما قال الزمخشري ، والخطاب للرسول ﷺ اولكل من يسمع القول أو [illegible] كان هذا شأنهم في مقالة ما ينفقون به من أموالهم ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، فلا تعجبك أيها الرسول او ايها السامع أموالهم ولا اولادهم التي هي في نفسها من أكبر النعم وأجلها ، ولا تظن انهم وقد حرموا من ثوابها في الآخرة قد صفا لهم نعيمها في

الدنيا ، وعلل النهي بقوله ﴿ انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ بما يعرض لهم فيها من المنغصات والحسرات ، أما الاموال فانهم يتعبون في جمعها، ويحرصون على حفظها ، ويشق عليهم ماينفقونه منها ، من زكاة وإعانة على قتال وإنفاق على قريب من المؤمنين ، وأشق منه اعتقادهم انهم بتركونها بعدهم لمصالح المسلمين ، لان ورثتهم منهم في الغالب حتى زعيمهم الاكبر عبد الله بن أبي كما سيأتي في الآيات التي نزلت في خبر موته على كفره وأعيدت هذه الآية فيها . وأما الاولاد فلأنهم يرونهم قد نشؤا في الاسلام واطمأنت به قلوبهم ، وأنهم يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وكل هذه حسرات في قلوبهم . ولقد كان ثعلبة الذي عاهد

الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الصالحين ثم أخلف الذي وعده بعد أن أغناه — أشدهم حسرة بامتناع الرسول ﷺ وخلفائه عن قبول زكاته

﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ فيعذبون بها في الآخرة أشد مما عذبوا بها في الدنيا بموتهم على كفرهم المحبط لعملهم. وزهوق الانفس خروجها من الاجساد. وقال بعض المفسرين هو الخروج بصعوبة ، وفي التنزيل (وقل جاء الحق وزهق الباطل) أي هلك واضمحل ، وجعله في الاساس مجازاً ، والظاهر انه من زهق السهم إذا سقط دون الهدف ، وورد زهقت الناقة بمعنى أسرعت ، فالتعبير بالزهوق هنا إما من الاول وهو الهلاك وهو الاظهر ، وإما من الاسراع للاشارة إلى انه لم يبق من أعمارهم الا القليل حقيقة او من قبيل قوله تعالى فيهم (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت او القتل وإذاً لا تمتعون الا قليلا)

(٥٦) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٧) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ

هاتان الآيتان في بيان سبب النفاق ومصانعة المنافقين المؤمنين وهو الخوف وبيان حالهم فيه ، قال عز وجل ﴿ ويحلفون بالله انهم لمنكم ﴾ قال الطبري : ويحلفون بالله لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون كذباً وباطلا انهم لمنكم في الدين والملة ﴿ وما هم منكم ﴾ أي ليسوا من اهل دينكم وملتكم بل هم اهل شك ونفاق ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ يقول ولكنهم قوم يخافونكم فهم خوفا منكم يقولون بألسنتهم انهم منكم ليأمنوا فيكم فلا يقتلوا اه وأقول إن الفرق بالتحريك الخوف الشديد الذي يفرق بين القلب وإدراكه — أوهو كما قال الراغب تفرق القلب من الخوف ، واستعمال الفرق فيه كاستعمال الصدع والشق فيه ، وفعله بوزن فرح ، فالمعنى انهم يحلفون من شدة خوفهم الذي فرق قلوبهم ومزقها ، ثم بين سوء حالهم في هذا الفرق بقوله

﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ الملجأ المكان الذي يلجأ إليه الخائف ليعتصم به من حصن أو قلعة أو جزيرة في بحر أو قنة في جبل، والمغارات جمع مغارة وهي الغار في الجبل، وتقدم اشتقاقه في تفسير آية الغار، والمدخل بالتشديد (مفتعل من الدخول) السرب في الأرض يدخله الإنسان بمشقة، والجماح السرعة الشديدة التي تعسر مقاومتها أو تتعذر. يقول إنهم لشدة كرههم القتال معكم، ولمعاشرتكم، ولشدة رعبهم من ظهور نفاقهم لكم، يتمنون الفرار منكم والعيشة في مضيق من الأرض يعتصمون به من انتقامكم، بحيث لو يجدون ملجأ يلجؤون إليه — أو مغارات يغورون فيها — أو مدخلا يندسون وينجحرون فيه — لولوا إليه وهم يسرعون متقحمين كالفرس الجموح لا يردهم شيء. وهذا الوصف من أبلغ مبالغة القرآن في تصوير الحقائق التي لا تتجلى للفهم والعبرة بدونها، فتصور شخوصهم وهم يعدون بغير نظام، يلهثون كما تلهث الكلاب، ويتسابقون إلى تلك الملاجئ، من مغارات [illegible] الماء، أو يندسون فيها. فكذلك كان تصوير [illegible]

قال ابن جرير: وإنما وصفهم الله بما وصفهم به من هذه الصفة لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله ﷺ على كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ولما هم عليه من الإيمان بالله وبرسوله، لأنهم كانوا في قومهم وعشيرتهم وفي دورهم وأموالهم، فلم يقدروا على ترك ذلك وفراقه فصانعوا القوم بالنفاق، ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بالكفر، (كذا ولعل أصله إخفاء الكفر) ودعوى الإيمان، وفي أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله ﷺ وأهل الإيمان به والعداوة لهم اهـ

﴿ اعتذار عن تأخير بحث الربا ﴾

لم ننشر شيئا من تتمة بحث الربا في هذا الجزء ولا فيما قبله لكثرة المسائل العارضة التي لا يمكن تأخير الكلام فيها وسنعود إليه في أقرب فرصة إن شاء الله تعالى.

فتاوى المنار

أسئلة من جاوة

(س ٢٤ — ٢٦) من صاحب الامضاء

الحمد لله وحده

إلى مدير مجلة المنار الغراء السيد محمد رشيد رضا أدام الله سلامته

سلاما واحتراما . وبعد فيا سمعنا بفضلكم وغيرتكم على الدين الاسلامي حتى انكم خصصتم فصلا من فصول مجلتكم لاقناع المستفهمين حررت هذه الاسئلة الثلاثة راجيا من حضرتكم أن تجيبوني عليهن ولكم مني ومن الاسلام أحسن جزاء ، ولتمام النعم أختار أن [illegible] في صفحات مجلتكم . وهذه هي

(١) ما حكم عبيد حضرموت [illegible] حقيقيون أي تمشي عليهم أحكام العبيد في الاسلام [illegible] الكفار لا غير . والذين نحن يصدوهم خلاف [illegible] الطريقة في استعبادهم

(٢) ما حكم الدعاء بعد صلاة التراويح والوتر وهل ورد عنه ﷺ أو عن احد صحابته رضوان الله عليهم فعل ذلك ؟ وما هي سنته ﷺ فيها [التراويح] اجيبوا بإيضاح

(٣) ما حكم شرب الدخان [السجارة] في نهار رمضان هل هو من مفطرات الصائم وما الدليل الواضح في ذلك ؟ أجيبونا مأجورين ودمتم في حرز الله والسلام

سميكم في الاصلاح

عبدالله بن عبدالله بن نبهان ـ بانجيل (جاوة)

[جواب المنار]

(٢٤) حكم عبيد حضرموت

الحق اني ليس عندي علم خاص بطريقة استعباد الناس في حضرموت ، وقد بينت في المنار من قبل أن المعروف من طرق الاسترقاق للسودانيين في افريقية

والمبيض في بلاد القوقاس وغيرها كله غير شرعي فان الرق الشرعي المعروف لا مجال له في تلك البلاد ولا في حضرموت قطعاً فليس هنالك حرب دينية ولا إمام يسترق السبايا إذا وجد ذلك من المصلحة العامة، وانما قد يتصور على بعد أن يوجد رقيق موروث بالتوالد فان كان يوجد عند المستعبدين لهؤلاء الاحرار فيا تمتنحجة على استرقاقهم لانعلمها أو رقيق موروث فليبينوا ذلك لنا لرفع التهم الكثيرة عنهم

(٢٥) صلاة التراويح والوتر، والدعاء بعدها

المراد بصلاة التراويح صلاة الليل بالجماعة في رمضان خاصة، وصلاة الليل مشروعة في كل الشهور وهي تتأكد في رمضان كسائر الطاعات فيه لفضله. واصلاتها بالجماعة أصل في السنة ففي حديث عائشة المتفق عليه ان النبي ﷺ صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس، ثم صلى الثانية فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما اصبح قال «رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم» وذلك في رمضان اه وفيه رواية أخرى [illegible] حديث بمعناه عن جبير ابن مطعم عند أحمد وأصحاب السنن الأربعة

أما عدد الركعات التي كان يصليها النبي ﷺ في ليالي رمضان فقد روى البخاري عن عائشة [رض] انه ما كان يزيد في رمضان ولا غيره عن احدى عشرة ركعة. وفي صحيح ابن حبان من حديث جابر [رض] انه ﷺ صلى بهم ثمان ركعات ثم اوتر. فعلم أن تهجده ثمان ووتره ثلاث فتلك إحدى عشرة

وأما اجتماع الناس لهذه الصلاة جماعة في المساجد فقد كان في عهد عمر [رض] فانه دخل المسجد فرأى الناس أوزاعاً متفرقين هذا يصلي وحده وهذا يرهط يؤمهم، فكره تفرقهم ـ وهو مكروه بالاجماع ـ فقال إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب. ولما رآهم في ليلة اخرى يصلون جماعة واحدة قال: نعمت البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون بها. رواه البخاري. ويعني عمر ان صلاة التهجد في آخر الليل التي ينام عنها هؤلاء، أفضل من هذه الصلاة التي يصلونها في اوله

لأنها هي المراد بالتهجد الموافق للسنة بمواظبة النبي ﷺ وكان مفروضا عليه ﷺ ومراده بتسميتها بدعة انها بهذا الشكل والوقت والالتزام لم يفعلها النبي ﷺ ولم يأمر بها وان كان صلاها جماعة في بعض الليالي ، ولعل عمر (رض) كان يعلم انه لو نهاهم عن فعلها بهذه الصفة وأمرهم بأن يجعلوا قيامهم بعد النوم لمن ينام وفي جوف الليل أو آخره لمن لم ينم وان يكون في بيوتهم وهو الموافق للسنة المطردة من كل وجه ـ انهم يتركونها فان لم يتركوها كلهم كسلا تركها بعضهم وتام بها آخرون فتعارض عنده هذا الذي قال انه خير مما جمعهم عليه مع ترك هذه السنة المؤكدة ولو من البعض أو فعلها في المسجد مع التفرق المذموم في الشرع كما رآهم أول مرة فاختار ما هو وسط بين المكروه وهو التفرق وبين الافضل ،

وأما الدعاء بعدها أو بعد غيرها من الصلوات كما يفعل الناس في المساجد بالاجتماع ورفع الايدي ورفع الامام أو الخطيب صوته به وتأمين الآخرين فهو بدعة من هذه الوجوه كلها ، ولكل أحد أن يدعو الله بما يشاء بعد الصلاة كسائر الاوقات ولكن تخصيص العبادة بالاجتماع والصفة والوقت بجعلها من الشعائر التي تتوقف على اذن الشارع وليس لأحد أن يبتدع وما هذا بالقياس على فعل عمر فان عمر لم يبتدع عبادة جديدة ولا هيئة في اولا شعارا لا أصل له ، فان النبي ﷺ صلى بالناس جماعة في بعض ليالي رمضان ولكن الناس ابتدعوا بعده في هذا القيام فنهم عمر وكان ما حملهم عليه اجتهاداً وترجيح أقوى المفسدتين المتعارضتين على الآخر ، والاجتماع للدعاء ليس مثله إن صح أن يقاس على الاجتهاد ، ثم ان عمر من الخلفاء الراشدين الذين جعل النبي ﷺ سنتهم كسنته في حديث العرباض بن سارية إذ يقول «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وقال حسن صحيح. وهو صريح في ان سنة الخلفاء الراشدين كسنته لا تعد بدعة ، وناهيك بما وافق عمر عليه الصحابة (رض) وأقروه وقد روى أحمد والترمذي من حديث حذيفة (رض) قال كنا عند النبي ﷺ جلوسا فقال « اني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي ـ وأشار الى أبي بكر وعمر ـ وتمسكوا بعهد عمار وما حدثكم به ابن مسعود فصدقوه »

ومع هذا نرى الائمة قد اختلفوا في الافضل في قيام رمضان فقال مالك وأبو يوسف وبعض الشافعية الافضل فعلها فرادى في البيت . وذهب الجمهور الى ان الافضل صلاتها جماعة عملا باجتهاد عمر الذي أقره عليه الصحابة وجرى عليه العمل سلفا وخلفا . ولا يعد عمل المتأخرين بالاجتماع للدعاء بعد صلاة التراويح ولا ما يفعله بعض الجماعات من الاناشيد والاذكار ومدح الخلفاء الراشدين وغيرهم من أهل البيت والصحابة (رض) من ذلك، بل هو من بدع المتأخرين المقلدين ، والذي يظهر ان هذه البدع مانعة من كون حضورها والمواظبة عليها أفضل من صلاتها فرادى في البيت أو جماعة في أي مكان آخر مع التزام السنة. وان بعض المحافظين على السنة من اخواننا يصلونها جماعة ولا يزيدون على ماثبت عنه ﷺ في حديث عائشة المتقدم ولا يأتون معها ولا بعدها ببدعة قط

وقد ذكر العلامة الشاطبي في الاعتصام ما يأتيه الناس من الاذكار والدعاء في أدبار صلاة الجماعات [illegible] وهي ما كان الابتداع في صفتها أو الاجتماع [illegible] بكلام الاندلسي فيها وما حققه من كونها بدعة [illegible] غير جائزة شرعا هو الحق ، وشبهة الذين استحسنوها ضعيفة وهي ان أصل الذكر والدعاء مشروع فلا يضر جعله بصفة غير مشروعة كالاجتماع والتوقيت ورفع الصوت . وحسبك من بطلانها الاعتراف بأن صفتها غير مشروعة، وان العمل بها واقرارها يجعلها كالشعائر المشروعة وان العامة تعتقد به انها مشروعة حتى انهم ينكرون على تاركها ولاسيما اذا أنكر مشروعيتها - فيكون ذلك اعتقاد شرع لم يأذن به الله ، ويعد من الافتراء على الله .

(٢٦) شرب الدخان في رمضان

ماعلمت ان أحداً من فقهاء المسلمين قال ان شرب هذا الدخان غير مفطر للصائم ولذلك استغربت هذا السؤال ولا شك في ان مادة هذا الدخان تدخل في الجوف وانها تؤثر في شاربه تأثيراً ينافي الصيام وحكمته ولذلك اتفق جميع الناس على تسمية التدخين شربا . فشرب الدخان مبطل للصيام قطعا

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير القرآن الحكيم

(تقريظ العالم العامل ، والقاضي الفاضل ، خادم السنة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر)

القرآن كتاب الله الى خلقه يرسم لهم فيه طريق الهدى والسعادة . أو هو كما وصفه الله سبحانه وتعالى (بلاغ للناس ولينذروا به) ونعم البلاغ

نزل هذا الكتاب المقدس في أمة كانت تتقاذفها الأهواء والعصبية ، وتعمها الجهالة العمياء . فما أسرع ما وضعهم على المحجة الواضحة والطريق السوي ، فصاروا أمة على قلب رجل واحد ، كلمتهم واحدة وهم يد على من سواهم . وبعد أن كانوا مستضعفين [illegible] ، ولا يحميهم منهم إلا بداوتهم [illegible] عن ملكهم ، فصاروا سادة الأرض ، كل هذا في بضع عشرات من السنين ، وكل هذا بهداية الله لهم أن تبعوا أوامره واستمعوا لكلامه .

ثم هذا القرآن أعلى أنواع التشريع في الارض ، وأرقى ضروب الحكمة ، فلما اهتدوا به وصرفت نفوسهم وعقولهم الى حكمته كانوا سادة بعقولهم وقلوبهم قبل أن يكونوا سادة بقوتهم وأنفسهم وجمع كلمتهم .

وهو الذي قرر حقوق الانسان في الارض ، من عدل وحرية ومساواة بين الناس ، لا فضل لأحد على أحد إلا باتباعه في خاصة نفسه وفي معاملاته مع غيره وفي كل حالاته .

ثم مرت عصور وأزمان ، وإذا المسلمون متفرقون ، وإذا هم مستعبدون ، وإذا لهم قوانين وتشريع أخذوه عن أعدائهم السابقين ، وإذا هم لا يخجلون أن يقلدوا من كانوا في الحضيض إذ هم في الذروة ، وإذا هم يهجرون القرآن

ولقد صدق الله سبحانه حين أخبرنا تحذيراً لنا من أن نعرض عن كتابه بأن الرسول الاعظم سيد الخلق عليه السلام سيشكونا إلى ربه (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) .

تالله لو أن المسلمين رجعوا إلى هداية ربهم وعملوا بكتابه وسنة نبيه ﷺ إذ أمره ربه بتبيين الكتاب لهم ـ لما كانوا على مانرى من ضعف واستكانة وذلة ولما امتلأت قلوبهم رهبة لأعدائهم ، ونفوسهم خاجة اليهم

أخذ الصدر الاول والسلف الصالح رضي الله عنهم يتعلمون القرآن ويعلمونه للناس ، ويرجعون اليه فيما يعرض لهم من شؤون وحوادث ، لايرضون حكما في دينهم ودنياهم الا مادل عليه القرآن او جاء عن السنة المطهرة المفسرة له ، نزولا على حكم الله ، فكان علماؤهم جميعا من هذا المصدر الواضح الذي يصدرون ، وكانوا كلهم بهذا مجتهدين .

ثم ضعفت النفوس والهمم [illegible] عفا الله عنهم ـ أنهم يعجزون عن أخذ الاحكام من [illegible] وصار بعض العلماء يقلد من سبقه من أئمة [illegible] منهم أو مشورة ، بل مع نهيهم رضي الله عنهم عن التقليد .

فكان هذا بدء الضعف . ثم توالت العصور فاذا المقلد مقلد ، واذا الامر فوضى ، واذا هم فرق وشيع ، وبلغ بهم الامر الى التناحر بالسيوف تعصباً لعصبية المذاهب .

وأمامك تاريخ المسلمين ، فسترى فيه توالي الارزاء والمحن ، فكلما بعدوا عن كتاب ربهم أبعد الله عنهم العز والنصر ، وهكذا كان ميزان رقيهم وانحطاطهم

ولما ضعفت السليقة العربية في المتكلمين بهذه اللغة أنشأ علماء الاسلام يفسرون لهم كتاب الله ، وكل على قدر همته ، فكثرت أنواع التفاسير للسلف والخلف ، متقدمين ومتأخرين ، وتراجم العلماء والائمة بين أيدينا ـ أو أكثرها وقد يندر جداً أن نجد منهم من لم يؤلف كتابا في التفسير ، فلم تعن أمة بكتابها من الوجهة العلمية بمثل ماعنيت الامة الاسلامية بالقرآن ، ولم تفرط أمة في حفظ

ما كتب شرحا لكتابها بمثل مافرطنا . فأين هذه التفاسير الجليلة للأئمة المتقدمين؟

ذهب أكثرها حتى لم نجد تفسيراً لرجل من الأئمة المجتهدين إلا تفسير أبي جعفر الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وما بقي بعده فهو لمؤلفين ممن سموا أنفسهم مقلدين.

ولقد كان المتقدمون يعنون في أكثر أمرهم بتفسير القرآن بما ورد من أحاديث مرفوعة، وآثار موقوفة، وباستنباط أحكام الفقه منه ، تعليما للناس كيف يفهمون و كيف يصلون الى الاجتهاد.

ثم ترك المتأخرون ذلك ولم يكن همهم الا الاطالة في أبحاث لفظية لاجدوى لها ولا فائدة الا في النادر والشذوذ.

حتى ان كتب التفسير التي بقيت مشتهرة فيهم، كثيرة بين أيديهم لا يطمئن الباحث المحقق الى فهم معنى آية منها ، ولا الى استنباط حكم ، بل ولا الى الثقة بالنقل ، فقد ملأ بعضهم تفسيره بقصص [illegible] مفتراة ، وأحاديث موضوعة ، من غير تحر في الرواية ، ولا [illegible] العقل السليم.

وبالله . لقد أ[illegible] المدرسة [illegible] في هذا البلد – يجهل التفسير [illegible] كانوا يجيزون الطالب بشهادة (العالمية) وان كان لايفقه في التفسير شيئا ، ماعرف كيف يبرع في المماحكات اللفظية

ولقد قيض الله للاسلام إماما من أئمته ، وعلما من أعلام الهدى ، وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فأرشد الامة الاسلامية الى الاستمساك بهدى كتابها ، ودلها على الطريق القويم في فهمه وتفسيره ، و كان منارا يهتدى به في هذه السبيل ، وألقى في الازهر دروسا عالية في التفسير ، وكان – فيما أظن – يرمي بذلك الى أن يسترشد علماء الازهر بذلك ، فينهجوا نهجه ، ويسيروا على رسمه ، ولكنهم لم يأبهوا له إلا قليلا ، ولم ينتفع بما سمع منه الا أفراد أفذاذ ، وبقي دهماؤهم على ما كانوا عليه.

ونبغ من تلاميذه والمستفيدين منه ابنه وخريجه أستاذنا العلامة الجليل السيد محمد رشيد رضا صاحب « المنار » فلخص للناس دروس الاستاذ الامام ، وزادها وضوحا وبيانا ، ونشرها في مجلته الزاهرة النيرة ، وجمعها في أجزاء على أجزاء

القرآن الكريم ، ومضى لطيته بعد انتقال الامام الى جوار ربه ، فكأنه ألهم من روحه . لم يكل ولم يضعف ، وهاهو الآن قد أتم منه أجزاء تسعة وكثيراً من العاشر

فكان تفسير أستاذنا الجليل خير تفسير طبع على الاطلاق ، ولا أستثني ، فانه هو التفسير الاوحد الذي يبين للناس أوجه الاهتداء بهدى القرآن على النحو الصحيح الواضح - اذ هو كتاب هداية عامة للبشر - لايترك شيئاً من الدقائق التي تخفى على كثير من العلماء والمفسرين .

ثم هو يظهر الناس على الاحكام التي تؤخذ من الكتاب والسنة ، غير مقلد ولا متعصب ، بل على سنن العلماء السابقين : كتاب الله وسنة رسوله . ولقد أوتي الاستاذ من الاطلاع على السنة ومعرفة عللها وتمييز الصحيح من الضعيف منها : — ماجعله حجة وثقة في هذا المقام ، وأرشده الى فهم القرآن حق فهمه.

ثم لاتجد مسألة من [illegible] والآيات الكونية الا وآيات حكمة الله فيها ، وأرشد الى الموعظة بها [illegible] التجريبي والمعرضين أسرارها . وأعلن حجة الله على الناس [illegible]

فهو يسهب في [illegible] هذا العصر ، ممن اطلعوا على أقوال الماديين وطعونهم في الاديان السماوية ، ويدفع عن الدين مايعرض لاذهانهم الغافلة عنه ، ويظهرهم على حقائقه الناصعة البيضاء ، مع البلاغة العالية ، والقوة النادرة . لله دره !

وأما الرد على النصارى واليهود فانه قد بلغ فيه الغاية ، وكأنه لم يترك بعده قولا لقائل ، وذلك لسعة اطلاعه على أقوالهم وكتبهم ومفترياتهم . وهذا قيام بواجب قصر فيه أكثر المسلمين ، في الوقت الذي تقوم فيه أوربة بحرب المسلمين حربا صليبية — قولا وعملا — وتحاول سلخ المسلمين عن دينهم وإن لم يدخلوا في دينها ، وها نحن أولاء نرى الجرأة العظمى بمحاولة تنصير أمة اسلامية قديمة متعصبة للاسلام ، وهي أمة البربر المجيدة . وان قيام أستاذنا بالرد عليهم بهذه الهمة من أجلّ الاعمال عند الله ثم عند المسلمين

ولقد عرض لكثير من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي عرضت في

شؤون المسلمين فأفسدت على كثير من شبابهم عقائدهم ودينهم ، فحللها تحليلا دقيقا وأظهر الداء ووصف الدواء من القرآن والسنة ، وأقام الحجة القاطعة على أن الاسلام دين الفطرة ، وأنه دين كل أمة في كل عصر . ونفى عن الاسلام كثيرا مما ألصقه به الجاهلون ، أو دسه المنافقون ، من خرافات وأكاذيب كانت تصد فئة من أبنائه عن سبيله . وكان أعداؤه يجعلونها مثالب يلعبون بسببها بعقول الناشئة ليضموهم الى صفوفهم ، ويخرجوهم من أحضان أمتهم .

وإنه لكتاب العصر الحاضر ، يفيد منه العالم والجاهل ، والرجعي والمجدد .

بل هو الدفاع الحقيقي عن الدين .

وأنا أرى من الواجب على كل من عرف حقائق هذا التفسير أن يحض اخوانه من الشبان على مطالعته ، والاستفادة بمعرفة ما فيه من علم نافع ، ولعل الله أن يجعل منهم نواة صالحة لاعادة مجد الاسلام ، وأن ينير به قلوبا أظلمت من ملئها بالجهالات الشائعة .

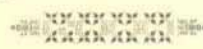
ولو كانت حكومتنا حكومة اسلامية حقة لفرضت أن يدرس في مدارسها ومعاهدها حق الدرس ، ولكننا نعرف أنها لا تلقي للدين بالا ، بل لا تدفع عنه من أراد به عدوانا ، والطامة الكبرى أنها تحمي من يعتدي عليه بقوانينها الوضعية

فلم يبق للمسلمين رجاء إلا أن يعملوا أفرادا وجماعات في سبيل الدفاع عنه واظهار محاسنه للناشئة التي تكاد تند عنه ، وهم عماد الأمم .

ولعلي أوفق قريبا الى بيان بعض الابحاث القيمة النفيسة من هذا التفسير مما لم يشف فيها الصدر أحد من الكاتبين قبله ، أو لم يكن في عصورهم ما يثير البحث فيها ، وذلك بحول الله وقوته .

أحمد محمد شاكر

القاضي الشرعي



آفة الشرق أمراؤه المستبدون

وزعماؤه المدفوعون

ومرشدوه الجاهلون

(خاتمة المقصد الثاني من الباب الخامس من تاريخ الأستاذ الإمام)

نختم الكلام في خدمة الإمامين الحكيمين للإسلام والشرق فيما قامت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعنا لها هذا العنوان، فلقد كان الناس غافلين عنها فبيناها لهم أبلغ البيان، وشر مفاسد هؤلاء الأمراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالأجانب الطامعين في بلادهم ولو عقلوها لتمكنت حقيقتها من عقولهم، ولو فقهوها لرسخت عبرتها في قلوبهم، ولما تكررت في مشرق [illegible] نزعت ممالكهم من أيديهم، ومن العجائب [illegible] الذين يلدغون من الجحر الواحد مراراً كثيرة. وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب إذاً فيما يصدر عن ملاحدة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الإسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ورضاهم بأن يكونوا أعواناً للأجانب على استعمار البلاد، وهذا ما لا نزال نشاهده في كل عام (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)!!

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زواياه خبيئة إلا واستخرجتها

أنشأت له مقالات خاصة، وجعلته مضرب الأمثال في المقالات العامة. وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الأمثال والإشارة إلى بعض تلك المقالات، ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد ومثل أخرى وهي :—

المثال الاول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن من العروة الوثقى موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جيش صغير تولوا قيادته)

دخل الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانبثوا بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، وإغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال والانفصال عن السلطة التيمورية ، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ، ثم أغروا كل امير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه ، فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب اوراجا الى النقود والجنود ليدافع بها عن حقه او يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين [illegible] احدى الراحتين يبذرون الذهب ، وقبضوا بالاخرى على [illegible] بتغير اولئك الملوك الصغار من هذا [illegible] وتوالى [illegible] الاختلال ، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها ، وما هم عليه من القوة والبسالة والنظام، حتى اقتنع كل نواب اوراجا بأن لا انتصار له على مقاتليه إلا بالجنود الانكليزية. فأقبل الانكليز على اولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه وفوزه بالتغلب على غيره بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضها من البريطانيين ، وما على الحاكم الا ان يؤدي نفقتها

ثم خلبوا عقول أولئك الامراء بدهائهم وبهرجة وعودهم ولين مقالهم حتى ارضوهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض ، وصار الانكليز بذلك اولياء المتناقضين ، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي اعدوها للحماية عنها ، ففرقة سموها (عمرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) إرضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

ولما فرغت خزائن الحكام وقصرت بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية

فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض ، وأظهروا غاية السماحة ، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة ، وبعضهم بدون فائدة ، ويتظاهرون بالميسرة حتى ظن كل أمير أن الله قد أمده بأعوان من السماء . وبعد مضي زمان كانوا يومئون الى طلب ديونهم بغاية الرفق ، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف ، فاذا عجز الامير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستغلها ونستوفي منها ديوننا ، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ، ثم الارض أرضكم نردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء ، وانما نحن خادمون لكم ، فيضعون أيديهم على نضروات الاراضي وفيحاتها ، وفي أثناء استغلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة ، وحصوناً منيعة ، كما يفعلون ذلك في ثكن [أماكن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية (١)

وفي خلال هذا يتحبون [illegible] الامراء بالتبذير ، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم [illegible] ثم يحضون نار العداوة بين الحكام [illegible] في أمر الصلح ، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه ليتنازل هو الثاني عن قطعة من أراضيه ، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الامين لكل من المتقاتلين ، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهملونها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية ، ويخرب بعضهم بيوت بعض ، حتى إذا بلغ السير نهايته ، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم ، وغلت الايدي فلا يستطيع أحد حراكاً ، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيوف تلك العساكر التي كانت حامية له وواقية لبلاده ، وكانت تشحذ لجز عنقه من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك ، فيخلعون المالك ويولون الطالب ، على شريطة ان يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً ، فيحولون

(١) وكذا يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

الملك من الاب للابن ومن الاخ لاخيه ، ومن المولى لأخيه ، وفي شكل ما الرايجون هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة اوربا . فما فاجؤا أحداً بحرب وما اختطفوا ملكا بقوة مغالبة ، بل ما أعلنوا استبدادهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهليها ، ولا بما تطرف به أجفانهم

أولئك الانكليز بأقمة العالم ، وأحابيل الحيل ، يريدون اليوم طرد العساكر المصرية ، وأرض مصر لا يحرسها الانكليز ، فلا تستغني عن حامية . فان تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزيا يكون خادما له وحافظا لملكه ، فان لم يقبل داروا بحيلتهم تحت أستار التمويه على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد يعرضونها عليه حتى يظفروا بمن يقبل نصحهم أو غشهم ذهولا عن حقيقة القصد ، فيقيمونه حاكما خافقا إن لم تسمح ذمته بالقبول ، وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا على تسيير الانكليز على الجند الوطني وقدحهم في سيرته بعد الثناء على حسن استعداده وسعيهم الى طرده بالادلة الواهية ، والعلل الواهنة



المقال الثاني

استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها (*)

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم أن تسود عليها ، وتستعبدها وتذللها للعمل في منافعها ، مع التخالف في الطباع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية ، فضلا عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة ، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون تحمله على المدافعة عن أمته ، كما يدافع عن بيته وحرمه ، فلا يتيسر للقوة الغيرة أن تذل الامة إلا بفنائها عن آخرها ، أو افناء الاغلب حتى لا يبقى إلا العجزة والزمنى ، هذا

(*) مقالة نشرت في العدد العاشر من العروة الوثقى بعنوان الآية

أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الامة

لم يسهل للقوة الاجنبية أن تتغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الامة حاكم أو رئيس روحاني تجتمع عليه قلوبها، وتدين له رقابها، لمنزلة له في أفئدة أبنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم، فلا تحتاج القوة الغالبة إلا الى ايقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ماتحكم به، أو نصب حبالة الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به. واذا خضع للقوة الغريبة خضعت الامة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب يتصدون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الامة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف، أو يملكونها بالخدعة وتزيين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون أزمة الأمم.

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان يهددهم من عقدة [illegible] التيموري وقبض الانكليز أول الامر على تلك المملكة [illegible] في أحقاب طويلة.

هذه قبائل الافغان [illegible] والامر الى الامة قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعدما تمكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون ألفاً من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لاهلها

لاريب انه يسهل على الانسان أن يأخذ شخصاً واحداً أو اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له أن يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع اهوائهم، ويأتيهم من ابواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه ان يأخذ أمة بتمامها وطوقها مختلفة عليه، ونفوسها في وحشة منه اليهم إلا بالابادة والتدمير

من هنا تجد الملوك العظام لايرهبون الاشتباك في حرب مع أمثالهم[1] بل ومن هو أشد منهم قوة ولكنهم يفرقون[2] بل تذهب افئدتهم هواء إذا احسوا بميل

1) أي امثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كيرهبون وزناً ومعنى

الامة عليهم، وما هذا الا لان قوة الغالبين داخلة تحت الضبط، وأما آحاد الامم وقواها فلا تنضبط ولا تستطاع مقاومتها، إذا ماضت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من ادوار الامة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمها واشتداد عضدها، كذلك يكونون في بعض اطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها. وإنا نخاف — ولا حول ولا قوة إلا بالله — أن يكون امراؤنا والاعلون منا آلة في اضمحلالنا وفنائنا، لما غلب عليهم من الترف والانهماك في اللذائذ والانكباب على الشهوات، مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم، فانا لله وإنا اليه راجعون اه

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم للامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للاجنبي عليها

(قال في آخر [illegible] الحاكم المستبد وصف فيها حال الامة مع الحاكم المستبد المصلح العالم، وحالها مع المستبد الجاهل الاحمق المتبع للهوى — ما نصه)

عند ذلك ان كان في الامة رمق من الحياة وبقيت فيها بقية منها، وأراد الله بها خيراً، اجتمع اهل الرأي وأرباب الهمة من افرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها، قبل ان تنشر الرياح بزورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها، وينقطع الامل من العلاج. وبادروا الى قطع هذا العضو المجذوم قبل ان يسري فساده الى جميع البدن فيمزقه. وغرسوا لهم شجرة طيبة (اصلها ثابت وفرعها في السماء) وجددوا لهم بنية صحيحة سالمة من الآفات، — استبدلوا الخبيث بالطيب — وان انحطت الامة عن هذه الدرجة وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء. فانذرها بغصص العبودية، وعناء الذلة، ووصمة العار بين الامم. جزاء على مافرطوا في أمورهم. (وما ربك بظلام للعبيد) اه

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ، وكان حكامها خدماً لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كافأته ، ومن خانها أو أساء اليها عاقبته، ويجب عليها ألا تولي شيئاً من أعمالها لأحد من المفتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولى[1] وقال الخليفة الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته « وليت عليكم ولست بخيركم فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجهولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها بأفصح العبارات وأقواها تأثيراً ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ، ثم في المغرب الاقصى ، ثم في البلاد العربية الآسيوية ، ف[illegible] الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها ورؤساؤها وزعماؤها ويليهم من دونهم من المتفرنجين الذين يتخذ منهم الاجنبي السالب لاستقلالها [illegible] في إدارة حكومتها ، مما لا يليق بالاجنبي [illegible] ، ومن قواعد سياسة الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي تزوّ بسيطرتهم عليها إلا من يعلمون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا عاصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لفتهم، وقد فتنوا ببهرج مدنيتهم ، لما خرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدوا هم وغيرهم في بلاد أخرى من أبناء البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ، وأين من يعقل ويفهم؟؟

(١) روى أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي بردة عن أبي موسى (رض) ان رجلين من قومه (الاشعريين) سألا النبي (ص) أن يؤمرهما فقال « إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه » هذا لفظ البخاري في كتاب الاحكام وله في استتابة المرتدين انه قال « لا نستعمل على عملنا من أراده »

نداء الى ملوك الاسلام

وشعوبه جميعا (١)

والى علماء الحرمين الشريفين، ورجال المعاهد الاسلامية من اعلام الازهر وملحقاته في المملكة الاسلامية، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس، ومعهد ديوبند في الهند، ومعهد النجف في العراق، والى الجمعيات الاسلامية في انحاء الارض، ولاسيما جمعيات الهند: جمعية الخلافة في بومباي، وجمعية العلماء في دهلي، وجمعية اهل الحديث في دهلي، وجمعيات اندونسيا: اتحاد الاسلام في سومطرا، وشركة اسلام في جاوة، والجمعية المحمدية في جكجاكرتا، والى المجلس الاسلامي الاعلى في القدس، والمجلس الاسلامي الاعلى في بيروت، والى جمعيه ترقي الاسلام في الصين، والى الصحف الشرقية على اختلاف لغاتها ولهجاتها:

ان أمة العرب التي اعتنقت الاسلام منذ العصر الاول، والتي طالما اعتمد عليها الاسلام في فتوحه وانتشاره، وطالما استند اليها مستنجداً أو مدافعاً في خطوبه العظمى

هذه الامة التي سارت مع طارق الى اسبانيا، ثم مع عبد الرحمن الغافقي الى فرنسا، ومع اسد بن الفرات الى صقلية

هذه الامة التي كانت منها دولتا المرابطين والموحدين، فكانت لها في تاريخ الاسلام أيام غراء مجيدة

هذه الامة التي ظهر منها العلماء الاعلام، والقادة العظام، والتي أرجالها في المكتبة الاسلامية المؤلفات الخالدة إلى يوم الدين

(١) وضع هذا النداء في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وبعد البحث فيه وتنقيحه أمضاه من نذكر أسماءهم في آخره ووكلوا الى مجلس ادارة الجمعية نشره

هذه الامة التي تبلغ في المغرب الاقصى وحده أكثر من سبعة ملايين نسمة (١) تريد دولة فرنسا الآن اخراجها برمتها من حظيرة الاسلام بنظام غريب تقوم به سلطة عسكرية قاهرة ممتهنة به حرية الوجدان ، ومعتدية على قدسية الاديان ، بما لم يعهد له نظير في التاريخ

لقد وردت على مصر كتب من الثقات في المغرب الاقصى تذكر أن فرنسا قد استصدرت ظهيراً سلطانياً تاريخه ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) ونشرته الجريدة الرسمية في المغرب بعددها رقم ٩١٩ تنازل فيه سلطان المغرب لها عن الاشراف على الامور الدينية لامة البربر ، وان فرنسا قد بدأت بالفعل في تنفيذ ذلك الظهير ، فقامت السلطة العسكرية في المغرب الاقصى تحول بين ثلاثة أرباع السكان وبين القرآن الذي كانت به حياتهم مدة ثلاثة عشر قرنا ، فابطلوا المدارس القرآنية ووضعوا [illegible] قلوب أطفال هذه الملايين وعقولهم في أيدي أكثر من [illegible] كاثوليكي بين رهبان وراهبات ، يديرون مدارس تبشيرية [illegible] المحاكم الشرعية التي كانت في تلك الديار ، وأخرجوا هذه الملايين [illegible] ليتحاكموا في أنكحتهم ومواريثهم وسائر أحوالهم الشخصية الى قانون جديد سنوه لهم ، أخذوه من عادات البربر التي كانت لهم في جاهليتهم ، وهي عادات لا تتفق مع الحضارة ولا تلائم مستوى الانسانية ، وحسبنا مثالا على انحطاطها وقبحها أنها تعتبر الزوجة متاعا يعار ويباع ، وتورث ولا ترث ، وأنها تجيز للرجل ان يتزوج ما شاء كيف شاء ولو اخته فمن عداها في عقد واحد ، وان قانوناً كهذا القانون يسن للمسلمين مخالفا للاسلام يعد من رضي به مرتداً عن الاسلام باجماع علماء المسلمين

ان فرنسا التي تبث الدعاية في امم الارض بأنها امة الحرية قد اجبرت رجال حكومة المغرب المسلمين على أن يتركوا دينهم بتنازلهم عما للسلطان من الحق في إقامة احكام الشرع الاسلامي بين رعاياه من قبائل البربر وجماهيرهم ، والاعتراف لحكومة الحماية الفرنسية بأنها صارت صاحبة التصرف في دينهم وامورهم التشريعية

(١) هذا تقدير تقريبي اذ لا احصاء هناك للقبائل

والتهذيبية ، وهو مالا تملك تلك الحكومة الحق في التنازل عنه ، ومنذ استصدر الفرنسيون ظهيراً (مرسوما) من سلطان المغرب بهذا التنازل اعتبروا جميع المدارس القرآنية ملغاة ، وجميع العبادات الاسلامية معطلة ، ووكلوا أمر تعليم أطفال المسلمين الى الرهبان توطئة لتنصير هذه الامة عقيدة وعبادة وعملا ، وحالوا بين جميع مناطق البربر وبين علماء المسلمين ورؤسائهم فلا يتصل بها احد منهم

أيها المسلمون

قد اجمع علماؤكم من جميع المذاهب على ان من رضي بارتداد مسلم عن دينه يكون مرتداً برضاه عن ذلك ، فيجب على جماعات المسلمين وطوائفهم وجمعياتهم وافرادهم أن يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على هذا العمل المنكر الفظيع ، بكل ما في وسعهم ، كل بحسب ما يليق به ، فاذا لم يتم الاحتجاج فكر المسلمون في الوسائل الجديدة . وان في وسعكم أيها المسلمون أن تجبروا دولة فرنسا على احترام اسلام هذا الشعب الكبير وتركه يتمتع بحريته الدينية والوجدانية ، لان حرية الدين والوجدان حق من حقوق الانسان يجب على الانسانية حمايته من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين

لقد سلكت دولة فرنسا مع اخواننا مسلمي المغرب سبيلا غير سبيل الرفق والنصح ، فجردتهم من وسائل النهوض ، وحالت بينهم وبين التعليم الصحيح ، وأنفقت أموال أوقافهم الاسلامية في ضد ما وقفت له ، واختصتهم بشر التعصبين من كل ما تتصل به مصالح الوطنيين والاجانب . وان في المسلمين من كان يعرف هذا ويتغاضى عنه الى حين ، رجاء أن يجعل الله لاهل المغرب فرجاً من عنده . ولكن امتداد يد السلطة القاهرة في المغرب إلى دين الاسلام ، واعتداءها على حرية العقيدة والعبادة ، قد أوصل هذا العدوان إلى الحد الذي ليس بعده حد ، فحق على كل مسلم أن يبادر الى انكار هذا المنكر بكل وسيلة يستطيعها

يجب أن تعلم فرنسا أن الاسلام لم يمت ، وان المسلمين قد استيقظوا ، وصار بعضهم يشعر بما يصيب البعض الآخر من اضطهاد في دينه ودنياه ، وان بناء مسجد في باريس يؤخذ باسمه ملايين الفرنكات من أوقاف الحرمين

الشريفين وملايين اخرى من الاعانات الجبرية من جميع مسلمي افريقية مع اعانات أخرى من سائر العالم الاسلامي ، لايمكن لفرنسة أن تجعله حجة على حرية الاسلام ومودة المسلمين في مملكتها ـ التي تسميها أحياناً اسلامية ـ مع هذا الجرم الفظيع الذي شرعت فيه أخيراً وظنت أنها تنزع به بضعة ملايين من حظيرة الاسلام بنظام تنفذه قوة عسكرية قاهرة

ان فرنسة اذا لم ترجع عن هذه الجريمة فان العالم الاسلامي يعتبر ذلك مجاهرة منها بعداوته ، وسيعلن ذلك على منابر المساجد ، وعلى صفحات المجلات والجرائد ، وفي حلقات الدروس الدينية ، وفي نظم الجمعيات الاسلامية

لقد حان حين امتحان أحرار اوربا فيما يدعونه من الانتصار لحرية العقيدة والوجدان ، حتى لقد رضوا بكثير من المنكرات التي يعترفون أنها منكرات ، وذلك حرصاً منهم على بقاء الحرية طليقة من قيودها ، وان أقدس الحريات حرية الوجدان والاعتقاد ، [illegible] في هذا العصر محاولة فرنسا ان تحول المغرب الأقصى [illegible] ت أن تحوله اليه

لقد سمعنا [illegible] ارتفع عالياً باستنكار ما فعلته روسيا البولشفية من اقفالها بعض المعابد ، مع ان يد البولشفيك الحديدية انما امتدت الى الحجارة والطوب ، ولم تمتد الى النفوس والقلوب(١) فالعالم الاسلامي ينتظر من اوربا التي احتجت على عمال السوفييت في الكنائس أن تقول لفرنسا كلمتها الصريحة في عدوانها على دين الاسلام في المغرب الاقصى ومنعها سبعة ملايين من البشر منعاً رسمياً مؤيداً بالسياسة والجيش من أن يسكنوا الى دينهم وان يتصلوا باخوانهم المسلمين اتصالا روحيا يطمئنون اليه ويرتاحون له

فيا أيها المسلمون ان دينكم مهدد بالزوال من الارض فان فرنسة اذا أمكنها تنفيذ مشروعها هذا في المغرب ، فستحذو حذوها جميع دول أوربة

(١) المراد انها تعدت على المعابد ولم تكره المتدينين على تغيير العقائد ، لكن بعض الناس يتهمونها بهذا أيضا

في المشرق ، وقد وجب عليكم في هذه الحال بذل أنفسكم وأموالكم في سبيل الدفاع عن دينكم فما الذي يمنعكم عن الدفاع عنه والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) ويقول (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ويقول (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ويقول (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

محمد شاكر وكيل مشيخة الازهر
سابقا

عبد الحميد سعيد
الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين

محمد رشيد رضا
منشىء مجلة المنار

خليل الخالدي
رئيس الاستئناف الشرعي [illegible]

أبو بكر يحيى باشا
[illegible] ومحكمة الاستئناف سابقا

علي جلال الحسيني [illegible]
[illegible]

علي سرور الزنكلوني
[illegible] الأزهر الشريف

محمود أبو العيون
من علماء [illegible]

محمود شلتوت
[illegible] الأزهر الشريف

ميرزا مهدي رفيع مشكي

محمد عبد اللطيف دراز
من علماء الأزهر الشريف

محمود الغمراوي
من علماء الأزهر الشريف

عبد الحميد الربيعي
من العلماء

الدكتور يحيى احمد الدرديري
المراقب العام لجمعية الشبان المسلمين

محب الدين الخطيب
منشىء مجلتي الزهراء والفتح

صالح جودت بك
القاضي

طنطاوي جوهري عبد الصمد شرف الدين الهندي محمد الهياوي

محمود يونس الاندونيسي
[illegible]

الفاروقي

السيد محمد عتيق
القاضي

[المنار] اجتمع أصحاب هذه التواقيع في نادي جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وبحثوا في المكتوبات التي وردت من المغرب الاقصى في شأن شعب البربر فيه وأجمعوا على اصدار هذا النداء ووقعوه بأيديهم كما تراه وقرروا أن تسعى ادارة

جمعية الشبان المسلمين لعرضه على بعض علماء المذاهب في الجامع الازهر ووجها بالمسلمين لامضائه ، وبالقيام بتبليغه لمن هو موجه اليهم في العالم الاسلامي كله . وبتأليف وفد من رئيس الجمعية والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي ليذهب الى الاسكندرية ويرفعه قبل كل شيء الى صاحب الجلالة ملك مصر ويرجو صاحب الدولة وكيل ديوانه السامي أن يبلغ جلالته آمل واضعي النداء في غيرته الاسلامية . وبالقيام بتبليغه الى رئيس جمهورية فرنسة وجمعية الأمم وبعض الصحف الاوربية الشهيرة .

وقد شرعت الجمعية في تنفيذ ما عهد اليها لانها تعده أقدس الواجبات عليها ، فذهب الوفد الى الاسكندرية وانضم اليه فيها فضيلة الاستاذ الشيخ محمد تاج الدين مراقب التعليم في معهد الاسكندرية الديني من قبل جمعية الشبان المسلمين فيها فذهب الثلاثة الى قصر رأس التين ورفعوا النداء الى دولة رئيس الديوان الملكي وبلغوه ما كلفوا أن يبلغوه إياه وكلموا معالي رئيس الامناء ورجاله في الموضوع أيضا ، فقابلهم جميع رجال [illegible] القائمة [illegible] العناية بالموضوع ، وعرض النداء على [illegible] الظواهري شيخ الازهر ليمضيه فأبى ولم يصدر نداء ولا إنكاراً غيره ، فاستنكر منه هذا كل من عرفه من المسلمين أولي الغيرة وتحدثت فيه الجرائد وكان أشد ما نشر فيها إنكاراً وتثريبا عليه كتاب مفتوح بامضاء عبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين ومقالة بامضاء مسلم نشرت في جريدة (العلم المصري) الكار جريدة للوفد الجديد ولا نستحسن نشر شيء من ذلك في المنار . ولكن أمضى النداء كثير من العلماء وسائر الطبقات الراقية ، وتوالت عليها وعلى جميع الصحف ولا سيما الاسلامية الاحتجاجات بالطعن في الدولة الفرنسية والتحريض على عداوتها ومقاطعتها ، بعضها من الجمعيات المنظمة وبعضها من الجماعات التي اجتمعت لأجل ذلك في مدن القطر المصري وفلسطين ، وقد نشر كثير من ذلك ولا يزال ينشر في الجرائد اليومية إذ هي التي تتسع له

ولم يتصد للدفاع عن فرنسة في هذا العمل المنكر الا جريدة الاهرام فكذبت الخبر وهي تعلم صدقه ، وطعنت في واضعيه بدون ادب ، فردت عليها الصحف

الاسلامية ردوداً شديدة ووصفوها بالتعصب الفرنسي والمسيحي وكراهة الاسلام . وردت عليها جمعية الشبان المسلمين رداً أدبياً ترتيباً لم نر بداً من نشره ومما ردت به عليها الجمعية وغيرها ان حكومة فرنسة لم تكذب الخبر وكان وزيرها المفوض بمصر أحق بتكذيبه لو لم يكن حقا . وعلى أثر ذلك نشرت الاهرام ثم غيرها البلاغ التالي من قبل المفوضية الفرنسية بمصر :

مسألة قبائل البربر

﴿ بيان المفوضية الفرنسية بترجمة الأهرام ﴾

ترى المفوضية الفرنساوية أن من المفيد نشر البيان التالي بناء على ما تلقته من طلبات الاستفهام العديدة عن موضوع نظام الاحوال الشخصية لقبائل البربر في بلاد المغرب في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ أصدر سيدي محمد سلطان المغرب ظهيراً يجعل لبلاد البربر نظاما مشروعا في [illegible] القضائية

فهذا القرار الذي [illegible] العدالة نحو قبائل البربر دون مساس بعقيدتهم [illegible] ظهير سابق صادر من المأسوف عليه السلطان مولاي يوسف بتاريخ ١١ سبتمبر سنة ١٩١٤ وفيه التسليم للبربر بنظامهم الخاص المبني على التقاليد وعلى حقهم بأن يحتفظوا بنظامهم ، الامر الذي لم يجادل فيه أي مسلم حتى أشد العلماء تدينا

والست عشرة سنة التي مرت بين صدور الظهيرين بالدرس والتفكير أظهرت اظهاراً كافيا أن عمل فرنسة في المغرب لا يتطرق اليه شك بالتسرع والخفة والنص الجديد لا يزيد فوق ما تقدم على أن يجعل الواقع المتبع منذ القدم أمراً مشروعا . فليس هناك اذن قرار تحكمي ولا ابتداع بل تقرير مشروعية حالة موجودة ومرعية منذ أبد الدهور ومعترف بها في الظهير الصادر في سنة ١٩١٤ وذلك بالتوفيق بين هذه الحالة والضرورات الحاضرة للقضاء والادارة

ويتناول الظهير ثلاثة أمور :

الاول — اختصاص القانون المعترف به بين البربر والجهات الاخرى أيضا ضمن حدوده ذاتها

الثاني — الاختصاص القانوني للجماعة المتبع في جميع الاعمال المدنية والتجارية وفي الثوابت والمنقولات ونظام الارث والاحوال الشخصية

الثالث — ادخال نص فرنساوي بين العدول الوطنيين في المسائل الجنائية فقط

ولاشك بان هذا الظهير يتفق مع أماني البربر القاوية كما تدل الرسائل العديدة التي وصلت الى رباط بشكر السلطان، والسلطان لايجد في ذلك انتقاصا من سلطته لان القضاء في بلاد البربر يصدر بعد اليوم باسمه والقضاة يعينون بقرارات وزارية

وقوى سلاطين المغرب وأشدهم تدينا احترموا دائما عادات وتقاليد البربر المختلفة عن قواعد الشرع . فلم يكن بوسع فرنسا أن تعمل غير ذلك ، لاسيما أن المبدأ الاساسي للحماية هو عدم التدخل في المسائل الدينية

ويجب أن يكون جميع المسلمين والتقين من الحياد الفرنساوي التام في المسائل الدينية الصرفة ، والبربر مسلمون [illegible]

وقد قامت فرنسا في [illegible] احترام الحرية مايكفي حتى لاتتهم بانها تعمل [illegible]

وفوق ماتقدم [illegible] على تجديد وترميم الآن المساجد المتهدمة والمدارس التي كانت مقفرة »

[تعليق المنار على هذا البلاغ]

في هذا البلاغ مايرى القراء من الابهام والايهام المعهودين في البلاغات السياسية ، وهو مع هذا يدل على صدق الانباء التي جاءت من عدة مدائن من المغرب الاقصى في مسألة البربر فكانت سبب اصدار البيان العام المتقدم، وعلى بطلان تكذيب الاهرام لها ، فهو يعترف بالظهير السلطاني الذي بنت عليه فرنسة وضع نظام مبتدع للقضاء في البربر دون سائر المسلمين ولكنه يدعي ان هذا النظام خدمة للعدالة يشترك فيها السلطان مع فرنسة كأن الشريعة الاسلامية غير عادلة. والسلطان لايعتقد عدم عدالة الشرع ، ولكنه مكره بالطبع . ودعوى البلاغ ان والد هذا السلطان الشاب كان أصدر ظهيراً قبل هذا في أول مدة الحرب لاتعد حجة على حقية الظهير الثاني لان مابني على الباطل باطل ولو كان كل منهما اختياريا ،

فكيف وهو غير اختياري كما لا يخفى ؟

وأما قول سعادة الوزير : ان هـذه الخدمة لا تمس عقيدة البربر الدينية ، فهو مغالطة لا تروج في معشر أهل العلم الاسلامي ، ونحن نحصر في ردنا عليه بأن الاحكام القضائية اذا كانت من قسم الاعمال الاسلامية لا من قسم العقائد فان من أصول العقائد الايمان بوجوب العمل بكل ما هو منصوص في القرآن وبكل ما أجمع عليه المسلمون منها ، ومن استحل ترك العمل بنصوص القرآن القطعية يعد مرتداً عن الاسلام اذا كان يعلم ذلك ، ويجب على أولي الامر من المسلمين كسلطان المغرب ورجال حكومتـه أن يعلموا الجاهل لا أن يقروه على جهله بضروريات الدين ويشرعوا له قوانين ينسخون بها قانون الشرع

فان كان سلطان المغرب السابق أو اللاحق (فرضا) قد حمل تقاليد بعض البربر المخالفة لنصوص الشريعة القطعية [illegible] من الدين بالضرورة حقا ثابتا لهم جاحداً لتلك النصوص أو مستحلا [illegible] كان [illegible] كافراً مرتداً عن الاسلام ، وبطل حكمه وسقط [illegible] عن تلك التقاليد بالتعليم والاقناع ، و [illegible] نفسه أو يعذره المنافقون من الحكام وعلماء السوء بأنه مكره على ذلك بقوة فرنسة المسيطرة على بلاده لا مختار ، وقد قال الله (من كفر بالله من بعد إيمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) الآية وهو يعلم كما يعلم غيره ان فرنسة قادرة على اخراجه من السلطنة كما أخرجت السلطان عبد الحفيظ — وهذه شبهة ولكنها باطلة فان التهديد بالعزل من السلطنة ليس عذراً يبيح لصاحبه نقض أحكام الشريعة القطعية .

فمن لا يستطيع أن يكون سلطانا الا بجعل نفسه آلة للكفار ومساعداً لهم على اخراج المسلمين من دينهم أو ما دون ذلك من المعاصي فلا يجوز له قبول السلطنة بهذا الشرط ، وقبولها لا يعد عذرا كعذر من هدد بالقتل الى قول كلمة الكفر بلسانه دون قلبه حتى ينجو من مهدده كما وقع لعمار بن ياسر (رض) فكان سببا لنزول الآية في الرخصة

وأما قول البلاغ ان أشد العلماء تدينا لم يجادل في ذلك فهو غير مسلم على اطلاقه في إجماله . ولا ثقة لمسلم بمن تعده فرنسة في اسلامه وعلمه كابن غبريط ولا الكتاني

ان صح ما نقل عنه، و كالذين رضوا من مسلمي تونس الجغرافيين (المنافقين) بمساعدة مؤتمر المبشرين (الافخارستي) وغيرهم من حملة شارات الشرف الفرنسية

ثم قد يعذر بعض جهلة بدو البربر في بعض التقاليد والعادات المخالفة للشرع اذا كان عن جهل بها بشرطه المعروف في الفقه، ولكن السلطان وغيره من أولي الأمر لا يعذرون بإقرارهم على هذا الجهل فضلا عن جعله شرعاً يبطل به شرع الله . ومثل أولئك الجاهلين من بدو البربر كمثل الجاهلين من بدو العرب الذين كانوا يستبيحون قتل الحجاج وسلب أموالهم وغير ذلك من مخالفتهم الشريعة، وكانت الحكومات الحجازية قبل حكومة ابن السعود مقصرة في تأديبهم، ولكن ذلك التقصير لا يعد احتراما من السلاطين وأمراء الحجاز والعلماء لتلك العادات ولا إقراراً لها ، وكذلك يقال في سلاطين المغرب .

وأما كون الاحكام الجديدة تصدر باسم السلطان الذي لم تبق له قرينة من الحكم إلا الاسم فهو مؤيد لخروج هذه الاحكام عن الشرع الاسلامي لان قرينة تعده هو الشارع [illegible] تصدر أحكامه ،

وأما قول البلاغ [illegible] الاولى منه من قبيل: السماء فوقنا ، والثانية خبر عن المستقبل وكلاهما لا يقال في البلاغات الرسمية .

وأما الامور الثلاثة التي أشار البلاغ الى اشتمال الظهير عليها فهي مؤيدة للتهمة لا مبرئة منها ، وانما نطالب الدولة الفرنسية بنشر نص الظهيرين الاول والثاني واطلاع الرأي العام الاسلامي عليهما وعلى القانون الذي بني عليهما .

وأما ما جاء من شكر بعض البربر للسلطان على عمله هذا فلا ينقض من التهمة شيئا - إن صح - لجواز أن يكون هؤلاء الشاكرون من الجهلة بأمور الدين أو من المحمولين على الشكر بالاكراه والقهر كما وردت به الاخبار من هناك ، فهو كما قال الشاعر :

ولم أر ظلما مثل هضم ينالنا يساء الينا ثم نؤمر بالشكر

ونحن نعلم من الروايات الصادقة ان من البربر وغير البربر من أنكر ذلك بقدر ما في امكانه مع فقد الحرية هناك فعوقبوا

وأما دعوى البلاغ الناص بمعاملتها لمسلمي الجزائر فهو ضد الواقع ولا محل

هنا لنقضه بالشواهد ، وأما مافيه من ذكر ترميم المساجد في المغرب فهو إيهام. الحق ان فرنسة جعلت جميع أوقاف المساجد وغيرها تحت سيطرتها واستولت على أموالها وجعلت التعليم الديني في أضيق من جحر الضب مع المراقبة على العلماء ، كما فعلت في الجزائر من قبل ، فهل لها ان تمن على المسلمين مع هذا ان سمحت بترميم قليل من المساجد المتداعية ارضاء لعلماء الآثار من قومها مثلا ؟؟ ألا انها منة عليهم كمنة فرعون على موسى بتربيته مع استعباده لقومه فأجابه كما حكى الله عنه (وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل) لكننا نكتفي بهذا الرد على البيان لنحكي رد غيرنا عليه فيما يلي :

رأي شيخ الازهر في البلاغ

جاء في المقطم أن أحد مندوبيه في الاسكندرية قد تحدث الى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر في صدد هذا البلاغ فأفضى اليه فضيلته بما يأتي : —

« لقد ارتحت الى ما تضمنه بلاغ التوفيقية من ان فرنسا واقفة في المسائل الدينية على الحياد [illegible] وانه بتشجيعها رممت مساجد كثيرة في بلاد المغرب الاقصى

« ولكني لم أرفيه ما يكشف الحقيقة من جميع وجوهها ولا مايرد على كل تلك التفاصيل التي وردت بها الانباء وكانت سببا في هياج الرأي العام الاسلامي فهو لم يتعرض لما قيل من ارسال نحو الف راهب الى تلك النواحي لتشجيع التبشير المسيحي ، ولا الى ماقيل من إلغاء المكاتب القرآنية والمحاكم الشرعية ، ولم يبين ماهو نظام الارث الذي أقر الآن لامة البربر ، ولا ماهي الاحكام الشخصية التي أقروا عليها الآن أيضا مع أنهم ماداموا مسلمين لا يجوز شرعا أن يكون لهم نظام ارث غير نظام الارث الشرعي ولا نظام أحوال شخصية غير النظام الاسلامي ، وتلك هي النتيجة المنطقية لانهم مسلمون وسيبقون مسلمين

« وان المسلمين فيما يوجهونه من الاحتجاجات موقفهم دفاعي محض ولا يقصدون أكثر من ابقاء الامور على ما كانت عليه قبل حماية فرنسا ولا يرضيهم جعل العادات القديمة لبعض القبائل نظاما مشروعا مادام في ذلك مساس بالمسائل والشعائر الدينية

«وفي أفريقية عادات متبعة منذ القدم وهي استرقاق الاحرار والاتجار بهم ولم يقل أحد ان مثل هـذا الاسترقاق ينبغي أن يكون مشروعا مادام موجوداً وان المعروف عن فرنسة وغيرها من جماعة الامم أنها تعمل على توطيد دعائم السلم وابعاد دواعي الاضطرابات

« فالمأمول منها بناء على ذلك أن تستأصل الداء من مكامنه الخفية فلا تساعد ولا تقر المبشرين على اعمالهم في البلاد الاسلامية فان ذلك مكمن عظيم من مكامن الخطر، وعليها أن تفصل بين نشر الثقافة والتبشير

وإني بصفتي الدينية - التي أعمل بها على توطيد دعائم السلم ومعاملة الاجانب من أي دين أو جنس بالحسنى وبالتسامح آمل من القائمين بالامر ألا يساعدوا ما يثير حفائظ النفوس وأن يعملوا على اعادة الاطمئنان الى تلك البلاد الاسلامية »

(المنار) أحسن ما في هذا البيان الذي كان الفضل في إظهاره لمندوب المقطم ما قاله الشيخ في مسألة الرق، ولا يوافقه أحد من المسلمين على قوله: انهم لا يقصدون أكثر من إلغاء الامور في المغرب كما كانت قبل الحماية الفرنسية بل يطلبون إصلاح ما كان من خلل وجهل كما أشرنا اليه، ولا يوافقونه أيضاً على كلامه في الثقافة والتبشير على ما فيها من إجمال، وقد انتقدت الجرائد الاسلامية منه أمورا أخرى

﴿ رد جمعية الشبان المسلمين على بيان المفوضية الفرنسية ﴾

نشرت المفوضية الفرنسوية في مصر بيانا في مسألة مسلمي البربر بالمغرب الاقصى فيه اعتراف صريح بأن ظهيراً سلطانيا قد صدر في ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ يشرك فرنسا مع السلطان في الاشراف على الاحوال الشخصية لبربر المسلمين ويجعل القانون في هذه الاحوال الشخصية هو العرف والتقاليد البربرية القديمة وبان هـذا العرف وهذه التقاليد تخالف قواعد الشرع الاسلامي وان تنفيذ ذلك في مناطق البربر منوط بالقواد

يعترف البيان بهذا ويحاول مع ذلك أن يفهم المسلمين أن الظهير لا يمس «العقيـدة الاسـلاميـة» كما ترجمه المقطم ويطلب الى جميع المسلمين أن يثقوا بحياد فرنسا (في المسائل الدينية الصرفة) حسب ترجمة الاهرام أو (في تلك المسأله المصطبغة بصبغة دينية محضة) حسب ترجمة المقطم ولا يمكن

التوفيق بين ذلك الاعتراف وبين هذا الطلب الا على اساس أن مصدر البيان لايفهم ما الاسلام أو انه يظن أن المسلمين لايفهمون

ان أخص خصائص الاسلام في الحياة الاجتماعية للفرد والمجموع هو أحكامه في الارث والاحوال الشخصية ، ونظامه في ذلك هو النظام الواحد الباقي قائما الى الآن من نظم الاسلام المدنية والاجتماعية ، فزواله من أي قطر أو اقليم اسلامي معناه زوال البقية الباقية فيه من الاسلام في المجتمع وفي البيت ، من قلب الفرد ومن بين الناس . ولم يتهم أحد فرنسا بتهمة أكبر مما يدل عليه بيان مفوضيتها صراحة من انها تخرج قبائل البربر بقوة القانون من الاسلام عن طريق حملهم في الارث واحوالهم الشخصية على العرف البربري القديم .

أما اعتذار البيان عن هذه الفعلة الشنعاء بأن العرف البربري كان قائما قبل الآن معترفا به من أقوى السلاطين حولا [illegible] صحيح ولا معقول ، لأن معناه اذا صح على وجه يستقيم به الاعتذار أن البربر لم يكونوا مسلمين قط ، والبيان نفسه يقول انهم مسلمون [illegible] أن العرف كان معترفا به من عرفهم في بعض قبائلهم [illegible] القرآن والا فما حاجة فرنسا الى أن تحمل السلطان يوسف منذ ستة عشر عاما كما يزعم البيان — على التسليم بذلك العرف أولا في ظهير التجيء هذا العام — بعد أن مضت الحرب وأمنت وظنت أنها أمنت أثر هذا التغيير في الناس — فتحمل ابنه الذي لم يبلغ بعد عشرين عاما على جعل ذلك العرف قانونا في ظهير آخر مقابل اصدار الاحكام باسمه في مناطق البربر منذ الآن؟ لو كان العرف البربري قائما معمولا به بين مسلمي البربر في الارث والاحوال الشخصية لما ترددت فرنسا في الامر ولما استصدرت من سلطان المغرب هذا الظهير

على اننا اذا سايرنا البيان الى أقصى حد وسلمنا جدلا بأن بعض مسلمي البربر كان يسير في أحواله الشخصية على العرف المخالف لاحكام الشرع فالبعض الآخر الكثير كان من غير شك يسير في احواله الشخصية على أحكام الشرع . والحاكم على أي حال لم يكن يحكم إلا بأحكام الشرع ، وفرنسا قد

قلبت هذا الآن رأساً على عقب ، فجعلت المحاكم تحكم في الاحوال الشخصية بما يناقض الشرع وقهرت على ذلك مسلمي البربر أجمعين ، من كان جدلا يسير على العرف منهم ومن كان يسير على أحكام الدين

ان هناك ملايين من مسلمي البربر قد اخرجتهم فرنسا بهذه الفعلة عن الاسلام ، وهذا ما ينكره علينا المسلمون

على أن البيان قد اقتصر على مسألة الاحوال الشخصية وسكت عن الامور الخطيرة الاخرى التي جاءت الاخبار الوثيقة من المغرب بأن فرنسا ارتكبتها هناك كمنع تعليم القرآن واللغة العربية بين البربر ، واخراج العلماء وحملة القرآن من بينهم ، ووضع اطفالهم بين ايدي الراهبات والرهبان يعلمونهم النصرانية باللغة الفرنسية . وقد اعترف البيان صراحة بصدق تلك الاخبار في مسألة الاحوال الشخصية . فسكوته عن الامور [illegible] الاخرى يعتبر اعترافا ضمنيا بها حتى تصدر المفوضية [illegible] آخر في الموضوع

أما رسائل [illegible] التي بعثت الى السلطان تشكره على الظهير [illegible] السياسة في كل مكان .

واذا كان هناك رسائل شكر عديدة فهناك أيضاً هياج كبير واحتجاجات كثيرة سكت عنها البيان ، وهناك ضرب وجلد وحبس في سبيل تنفيذ الظهير

وأما استشهاد المفوضية بما تسميه احترام الحرية في الجزائر فان الحرية الدينية التي نحن الآن بصددها قد أصيبت في الجزائر بما لا تتشرف به فرنسة . ففرنسا مثلا مستولية هناك على الاوقاف الاسلامية وأوقاف الحرمين الشريفين والعالم المسلم لا يستطيع أن يقرأ درسا في مسجد الا تحت الرقابة الشديدة ، والمسلم ليس له حق تمثيل بلاده في الهيئات النيابية الا اذا قبل القانون الفرنسي حتى في الاحوال الشخصية . أي ان فرنسا تحرم المسلم الجزائري من كل حقوقه السياسية إلا إذا خرج عن دينه في الاحوال الشخصية من زواج وارث ، فهي تعمل على إخراج المسلم من دينه في الجزائر كما تعمل على إخراج المسلم من دينه في المغرب وان اختلف طريق العمل في القطرين ؟ رئيس الجمعية العام — عبد الحميد سعيد

آراء ساسة فرنسة في سياستها الاسلامية

(وامكان الاتفاق على ما هو خير منها للاسلام والانسانية)

لقد آن للعالم الاسلامي أن يعلم ما تكيده له دول الاستعمار في دينه ودنياه ، وأن يبذل ما يستطيع من حول وقوة للدفاع عن نفسه من حيث هو أمة واحدة كما قال الله ، وكل شعب من شعوبه وكل فرد من أفراده كعضو لجسد واحد كما قال رسول الله ﷺ وأقله تنظيم الدعاية والمقاطعة العامة الاقتصادية ، وأكبره الثورة العامة المدنية فالدموية ، (وقد جمعت بينهما الهند) وآن لهذه الدول أن تعلم ان هذه الشعوب قد تنبهت أو هبت من رقادها وشعرت بآلامها ، فلم تعد تطيق ما كانت تسام به من إرهاق واستذلال ، فضلا عما تحاوله هذه الدول من الزيادة عليه ، وأن تعلم مع هذا أنه يوجد في عقلاء المسلمين [illegible] الاعتداء بالبحث معها الى الاتفاق على معاملة مشتركة تكون خيراً للانسانية في ترقيها وتوقيها أسباب الحروب الساحقة الماحقة [illegible] الممكن من مصلحة المستعمرين ومصالحها

وبهذا القصد نشر المنار ما نشرنا في مسألة الغرب الاسلامي وما تفعله فرنسة فيه لتعلم هي وكل من يقرؤه أنا لانبغي به التشهير بسياستها تشفيا منها وتحريضا على عداوتها ومقاطعة المسلمين لها ، إلا بعد اليأس من انصافها ، وقد سبق لي السعي لمثل هذا الجمع بين المصلحتين في معاملتها للسوريين في حديث طويل ألقيته إلى مسيو روبير دوكيه في بيروت (إذ قابلني بالنيابة عن الجنرال غورو في أوائل مارس سنة ١٩٢٠) فقال بعد المناقشة الطويلة فيه : « رأي ممكن تنفيذه وليس بخيال ، ولكن يجب درسه وتمحيصه والاتفاق على طريقة تنفيذه بين الفريقين » ثم حاولت مثل هذا السعي في (جنيف) مع مندوب فرنسة في عصبة الامم موسيو هانوتو الشهير فلم يتح لي ذلك ، وقد اصلت هذا وذاك في المنار كما يعلم القراء .

ولكن أحرار فرنسة الذين لايهمهم الا مصلحتها العامة قلما ينظرون في أمثال هذه الآراء الحرة فان تقاليد وزارة الخارجية الفرنسية السياسية الدينية (لا كليركية)

والعسكرية، أرسخ من تقاليد المجاز في تقاليدهن الدينية والدولية ، وقد خرجت بها عن حد المعقول والمعتاد عند الحكماء ، والعقلاء الذين يتحرون الاستفادة مما ينتقد عليهم ، فان هؤلاء السياسيين اذا رأوا انتقاداً موجها الى ، وانهم يدفعونه بغير تأمل ويطرون أنفسهم او يعتذرون عنها بانه كلام عدو ، وقد يكون كلام صديق ، او ناصح لمصلحة له في النصيحة ، وقد قال الشاعر العربي الحكيم في ذم الاعداء :

عداتي لهم فضل عليّ ومنة فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ولكن رجال السياسة الاستعمارية في فرنسة لا يحبون اجتناب زلاتهم ، وان عرفوها من أنفسهم وأصدقائهم ، وانما يتكبرون ويتأولون كما فعلوا في مسألة البربر قد ابتلي مسلمو الجزائر فتونس فمراكش بالدولة الفرنسية فكانت سيرتها فيهم أشد استبداداً واستعباداً وظلما من استعمار الكافرة وهولندة أضعافا مضاعفة وقد وجد من عقلاء الشعب الفرنسي ومن عقلاء المسلمين من حاولوا اقناع هذه الدولة بإنصاف هؤلاء [illegible] من يحب هذا ويريده إن كانت هذه الدولة تقدر

ولكن متى تريد ومن بيدي أولي الامر في عاصمتها عدة مصنفات جديدة قد عني مصنفوها باقناعها فيها بأنه لا يمكن خضوع مسلمي افريقية بالاخلاص لها إلا اذا ارتدوا عن الاسلام وصاروا نصارى أو ملاحدة ، وأن ردهم عنه ممكن ، فبعضهم يختار فيه إكراههم على النصرانية بالقوة القاهرة كافعلت اسبانية في الاندلس ، وبعضهم يختار إكراههم على تربية أولادهم وتعليمهم في المدارس التبشيرية والالحادية ما يحول بينهم وبين الاسلام ولغته ، وسياسة كبارهم بالشدة والقهر ، وإفساد أمرائهم وزعمائهم بالاصطناع والتمكين من الشهوات المفسدة للاخلاق ، والاستعانة بهم على كل ما يريدون من الاستيلاء على ثروة الامة وتحويلها عن شريعتها وآدابها الخ

إن كتاب (الاسلام في المستملكات الفرنسية) الذي ألفه الضابط موسيو (جول سيكار) أحد الموظفين الفرنسيين في مراكش يعد معتدلا بين تلك الكتب التي تغري فرنسة بإخراج مسلمي افريقية من دينهم ، ولما انتقدناه في

بجلد العام الماضي تعجب قراء المنار من كنود هذه الدولة إلى مسلمي مغاربة المسلمين دماء مئات الألوف منهم في الدفاع عنها ثم يجدونها تعدهم أعداء غير مخلصين لها في الباطن، وتحاول إهلاكهم في الآخرة بالكفر والإلحاد كإهلاكهم في الدنيا بالفقر والإذلال. فكيف لو قرأ هؤلاء تلك الكتب التي تحضها على حرمانهم من كل علم نافع وإكراههم على ترك دينهم بالقوة كما فعلت اسبانية بسلفهم من مسلمي الأندلس؟

عثرت صحيفة الفتح أخيراً على نسخة من كتاب (السياسة الصريحة) للضابط الفرنسي (الكابتن أدينو) وقد ترجم وطبع بالعربية سنة ١٣٤٧ فلم تلبث حكومة الاستعمار أن جمعت نسخه ومنعت نشره لأنه صرح فيه بسياسة السرية لاعتقاده أنه أنفع لها من الرياء الذي تحاول إخفاءها به وهو لا بد أن يشف أو يتمزق فتظهر الحقيقة في وقت غير ملائم

وقد نشرت الفتح للقراء منه جملا نختار منها الآن ما نصه:

« أنترك المغرب على ما هو عليه من خمول مما نه الذي تتوارد عليه جميع الحوادث السياسية أم لا؟ بلى ، ولكن لا نعطيهم من العلوم والمعارف إلا ما يكون لهم كافيا ليرضوا عقلهم [illegible] لنا أن نحترم مبادئ قوانينا بالمغرب، وقد [illegible] إلا تمدن أهله ونسعى في ترقيته بدون فتور ولا انقطاع حسب الدرجة التي يكون قابلا لها ويوافق فكرة المسلمين. وما نسعى فيه من تكثير عدد المسلمين بمعالجة أمراضهم أمر يضيق لنا الفضاء الرحب المعد هنا لفرنسا

« لا. لا نسعى في هذا الأمر أبداً، وإذا فعلنا وإننا في أمليهم فإنا نحن جالبون على أنفسنا خطراً عظيما يقف بوجه مهمتنا هنا

« الإسلام تهديد لفرنسة وخطر عظيم على نفسها ، لأنه لو انحاز المسلمون عن جانب فرنسا لكان في ذلك الضرر الكبير على قوتنا

« أليس من الواجب علينا إذن أن نقلل من درجة قوتهم ودياناتهم الزاهرة التي تود صعوداً وانتشاراً؟ وإنا ليشتد خوفنا من اجتماع طوائفهم المختلفة يوما ما على كلمة واحدة واتفاقهم عليها

« إلى الغافلين الذين لا يخاطرون لهذه الحالة قدم كلتي ، وهي أن لا يسعوا في

تحديد شوكة | إرهاق حرية | يصابون بها يوما ما ، ولا خشية لنا في ذلك لاني ماعثرت قط في التواريخ على ان فرنسة حاربت انكلترا لتحميها من هدم مستعمراتها (١) والا فاني أرقب من اولئك العادلين الذين يودون تقديس عادات الامة وحياتها أن لايقوموا بمحاربة من لم يرض سلطانها عليه ، لان وجودنا بأرض الغرب هو معلوم القصد فائدتنا الشخصية من ارضه ، واذا كانت الفائدة هي التي تقود زمام أمة فكل شيء لديها مباح والحروب اكبر دليل عليه

« وما هي أيضا حاجتنا بأرض الغرب اذا كنا نسعى لامر ليس هو بالهين في جاب عاقبة ليست بمحمودة النتيجة ، او عملنا لمنافع امة لاتكون لنا مخلصة الود ، او لمجرد نفع غيرنا من الامم . وبعبارة أخرى اقول: الا فائدة لنا فيما نتحمله في هذا القطر باضاعة اموالنا وصرفها

« قال لي أحد الضباط [illegible] من [illegible] بقاء بلاد الجزائر تحت سلطاننا فقلت لسبب [illegible] (٢) وصدقا قال

« واني لا [illegible]

(١) ينبه هذا [illegible] المسلمين من عالم اسلامية او اوربية ، ويقول انا اذا اضطهدنا الغرب لانخشى ان تحاربنا دولة اخرى كالانكليز لانا لم يسبق لنا في التاريخ محاربة لانكلترا عندما هددوا مستعمراتهم اه والمنار يذكره بان انكلترة طردت فرنسة من الهند ثم من مصر وحاربتها لاجل الاستعمار وذكرها باحتلال اعظم امبراطور سياسي حربي تولى امرها وهو نابليون الاول، ثم يذكره بتحرش ثانية بفرنسة في الغادر ، ويذكره اخيرا بان الحروب العامة لم يكن سببها الا التنازع على الاستعمار وبان فرنسة اذا هوجمت مرة اخرى فان تجد من اسباب الدفاع عنها بعض ما وجدته بهاتين مستعمرتيها من امم الارض حتى الولايات المتحدة!! (٢) يريد الجيل الذي كان يعرف ذكريات جهاد الامير عبد القادر ، وكان في قلوبهم حياة باستنشاق الجهاد اه ويستدرك المنار على هذا بان الجيل الآتي في جميع افريقية سيحارب فرنسة بنظام علمي اوربي يكون اقوى من حرب ذلك الجيل بالسلاح اذا هي أصرت على ظلمها وسياستها الحاضرة ، فهل تطمع في سوق مليون جندي منه الى أوربة لقتال ألمانية أوايطالية ؟ كلا ثم كلا

لا يكون الحكم المغرب ملكا ما دام فيه المسلمون

« اقول هذا ويقيني بأني ولو كنت عالما بأن المسلمين سيطلعون على مقالي هذا ما غيرت من لهجته (١)

« ماذا يطلب منا المسلمون ؟ انهم لا يطلبون منا الا ان نخبرهم بكل صدق وحقيقة ليتخذوا احتياطاتهم . وأنا كذلك لا احب تلك السياسة المموهة الخادعة الكذابة التي لا تريد أن تغضب احداً من الناس بحديثها العذب اللين التي تجمع جميع الناس بوعد النتيجة يوم يكشف عن حقيقة سرها لا تحترم احداً

« خلاف هذه الفكرة اني ، أود ان نعامل المسلمين بالسياسة الصريحة اللهجة فنصرح لهم : هل يجدنا ان ندعهم سائرين على اثر ا[illegible]عفوا من انفسهم ؟ ام سنرغمهم عليه قوة منا ؟ لا نواري عنهم [illegible] بطائق شيء ، مع حالة الاسلام

« فاذا تقاسم المسلمون [illegible] العارية حماية على حين تقف مع الامة التركية [illegible] (٢)

« اذا تولت [illegible] لا بد من وقوع امتزاج واندماج فيما بين الفريقين . وفرنسا هنا بالمغرب لا تعلن ان تندمج في الاسلام كما ان الاسلام لا يقبل منها شيئا خارجا عن تقاليده ولكن غاية الرجاء عندنا ان يكون المسلمون فيما بعد مطلقين بجنسيتهم كما عليه البروتستانيون والاسرائيليون اليوم

---

(١) المنار لشكر لهذا التصريح ولصارحه بأن فرنسا تعجز عن إبادة المسلمين من المغرب ان فرضنا انها تجد من يصدرها من غيرهم وهي عن اخراجهم من الاسلام اعجز وان اخراجهم منه ان امكن ولو الى النصرانية يكون اشد خطراً عليها ما دامت مصرة على اثرتها وظلمها لانهم يجدون من مساعدة دول النصرانية حينئذ عليها ما لا يجدون اليوم ولا سيما أمثال الاب فوكول خليفة الاب بطرس الناسك

(٢) يتساءل هذا السياسي الفرنسي : كيف يجوز ان تتبع فرنسا سياسة صليبية مع تركيا في القرون الماضية كلها لانها كانت دولة مسلمة ثم يعترفون الجزائريين بحقوق ولاهل المغرب الاقصى بحماية مع ان الجميع أبناء دين واحد !

وبهذا يمكن لهم ان يعيشوا معنا جنبا لجنب (١)

« انا لا اتصور كيف يمكن لفرنسا مع المغرب ان يعيشا معا وكل منهما على ملازمة احواله وعوائده القديمة المتمايزة وأفكاره المتباينة . وقد تدوم هذه الحالة اذا ايدتها القوة ، والقوة امر لابد من اضمحلاله ، وستحتاج فرنسة يوما ما الى جنود المدافعة عنها فماذا يكون عملها يومئذ؟ لماذا لا نحتاط لهذه الاسباب منذ اليوم؟ « لكن بقي علينا أن نقول: هل في امكاننا ان نستولي على قلوب المسلمين ونجعلها جانبنا؟ الخ

[المنار] نشكر لهذا الكاتب صدقه وصراحته اللذين يقل مثلهما في قومه ؟ وهو لم يجب عن سؤاله الأخير لان الاستفهام فيه انكاري لا حقيقي ، يريد انه لا سبيل الى ذلك

ونحن نقول ان هذا في الامكان اذا كانت فرنسة تترك غرور ضباطها وقوادها والاب فوكول وأمثاله من الآباء في سياستها الصليبية ، كما تتركه في إدارتها وسياستها الداخلية ، وتتبع سياسة الحق والعدل والانسانية ، التي جعلتها شعارها رياء وخداعا وهو العدل والمساواة والحرية ، وذلك بأن تترك لهم حريتهم الدينية والادبية والاجتماعية وتساعدهم على [illegible] [illegible] والتجارة [illegible] يكفل لها الربح العظيم والثروة الواسعة ، وتوجد بينهم رابطة توجب عليهم إمدادها بالجند والمال اذا هي اصطلت نار حرب لم تكن فيها معتدية كما يوجبه عهد عصبة الأمم ، والمسلمون أشد أهل الخلق وفاء وصدقا ، واذا كانوا قد استبسلوا في دفاعهم عنها في الحرب الأخيرة على شدة اساءتها اليهم في دينهم ودنياهم ، فكيف يكون شأنهم معها اذا هي أحسنت اليوم احسانا حقيقيا لا يرتابون فيه ؟ وأما الذين يضربون لها المثل بخروج الهنديين والمصريين على انكلترة مع احسانها في معاملتهم فهم خادعون فان انكلترة لم تكن محسنة لهؤلاء بل مسيئة ، وقصارى الأمر أن اساءتها اليوم دون اساءة فرنسة لمسلمي أفريقية ، وأما الاحسان الحقيقي فلا يكفره المسلم وهو يؤمن بقول الله تعالى (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟)

---

(١) المنار: والمسلمون يصارحونه بأنه لا جنسية لهم في غير دينهم فهم لا يقبلون الجنسية الفرنسية لانها تخرجهم منه فيخسرون الآخرة مع الدنيا لان فرنسة لا تساويهم بابناء جلدتها الاوربيين في كل شيء وإن تجنسوا بجنسيتها كما علم التجربة

ثم ذكره بأن أهل أمريكة قد أخرجوا الانكليز من بلادهم بالقوة الحربية وهم متحدون معهم في اللغة والدين والمذهب وكذا في الجنس الغالب .

ان هذا الضابط يهدد مسلمي المغرب بقوة دولته العسكرية القاهرة التي لا يعقل في العالم غيرها ، ولكن الامم اذا عرفت نفسها وشعرت بوحدتها تعذرت سياستها وإدارتها بالقوة العسكرية ، وما القوة الا تهاويل وأراجيف من الوهم تزول بأول ثورة تتجرأ بها الامة على المقاومة كما وقع في بلاد كثيرة وظهرت بوادره في المغرب الاقصى

وكذلك اخضاع المستعمرين الشعوب بالتماثيل الآلية التي ينصبونها لها باسم سلطان أو ملك أو أمير أو باي أو رئيس ، ومن يستخدمونه بإيمائها من وزير ومدير ومفت وغير ذلك ، قد آن لزمنه أن يولي مشيعا باللعن ولرجاله أن ينبذوا موسومين بالخيانة

كيف تريد فرنسا القضاء على الاسلام

في المغرب الاقصى

(جاءتنا هذه [illegible] من جمعية [illegible] باريس وكان قد تم تحرير هذا الجزء من [illegible] فأخرنا [illegible] وتصديره ونشرناها فيه لجمعها للحقائق في المسألة التي نحن بصددها ولاسيما بيان هؤلاء الشبان لمطالب مسلمي المغرب من حكومة بلادهم التي لا يرضون دونها . وهذا نصها)

استغربنا ما كتبته جريدة « الاهرام » في أحد أعدادها من تكذيبها ما تسعى اليه فرنسة من هدم الديانة الاسلامية في المغرب الاقصى . وحجة الاهرام في ذلك أن علماء المغرب الاقصى أكبر علماء الاسلام ، ولا ندري أتريد بذلك تهكما مقصودا ؟ أم هي تنطق بلسان الحق ؟ ثم حجتها الاخرى هي كون فرنسة الدولة اللادينية الوحيدة في اوربة : كأنها تجهل كلمة غامبتا « ان اللادينية بضاعة لا تصدر الى خارج فرنسة » وكأنه غاب عن الاهرام ان فرنسة سمحت منذ ثلاثة أشهر المؤتمر الافخارستي الذي ينظر في مسائل التبشير بأن يعقد في تونس واشتركت في المؤتمر رسميا بممثلها مندوبها السامي في تونس الذي حضر في جلسات ذلك المؤتمر ، ومنحت مليونين من أموال المسلمين لأعضائه ، وسمحت لأبناء المدارس الفرنسيين في تونس

أن يتجولوا في الشوارع مرتدين لباس الصليبيين الذين أتوا فيما مضى لفتح تونس مع القديس لويس !! فهل تستطيع الاهرام مع هذا أن تصف فرنسا باتجاه لاديني »(١)

اما قضية المغرب الكبرى التي تقيم اليوم العالم الاسلامي وتقعده - نعني القضية البربرية - فهي ليست بنت اليوم، بل خاض فيها من قبل كثير من الساسة والكتاب الفرنسيين ، بل الموظفين الفرنسيين في الحكومة المغربية ، نخص بالذكر منهم لوجلي في كتابه (فرنسا وتعليم البربر) ومارتي في كتابه (مغرب البربر) وميكار في كتابه (الاسلام في الممتلكات الفرنسية) وأزار في مقالاته العديدة، وسوردون في كتبه عن (عوائد البربر) ولويس برينو في ابحاثه عن (مسألة التعليم في المغرب) وتزيد عليهم عضو الأكاديمية الفرنسية الكبرى لويس برطران في كثير من كتبه ولا سيما كتابه (أمام الاسلام) الذي نال فيه من كرامة مصر وسب فيه اخواننا المصريين سبا بذيئا

اتفق رأي هؤلاء كلهم ووراءهم جيش عظيم من القسيسين والمبشرين ، على أن اسلام البربر الغارة [illegible] وانهم أعداء ألداء للعرب والشريعة الاسلامية وان ذكريات النصرانية لا تزال حية في نفوسهم وانهم لا يزالون يذكرون الحكم الروماني وسيادة القياصرة ، وأن عصيان البربر في العصر الاخير لملوك المغرب ليس له من سبب إلا تخوفهم من سلطة الشريعة الاسلامية

ولا يخفى ما في هذه النظرية السيئة السريرة من كذب وبهتان ، وتحامل بعثته أهواء دنيئة تتعصب للمسيحية والاستعمار تعصبا شنيعا . كأن أصحابها يرون أن تاريخ المغرب ينحصر في ولاية السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحفيظ ، التي كانت مضطربة أشد الاضطراب (٢) وينسون أو يتناسون أيام المغرب الزاهرة

(١) المنار : تعلم جماعة شبان المغاربة وسائر المسلمين ان رئيس تحرير الاهرام يعلم كل ماذكروه من محاربة فرنسا للاسلام ويعلم أكثر منه ولكنه مغرور بجهل جمهور قراء الاهرام المسلمين فهو يحارب دينهم بقلمه مساعدة لفرنسا ولغير فرنسا ، ويخدع الأغرار منهم بنشر مدائح بعض منافقيهم له جزاء مدحه لهم ، ولكن سريرته قد ظهرت في هذا العهد (٢) المنار : كان لفرنسة تأثير عظيم في هذا الاضطراب

تحت دول البربر ، كالمرابطين والموحدين ، فهاتان الدولتان العظيمتان لم تكتفيا بتعضيد الاسلام ونشر شريعته في المغرب فقط ، بل ذهبتا لنشره وتعضيده في اسبانية والسنغال وأفريقية الشمالية كلها ، ويتناسون أيضاً ان الدولة المرينية هي التي شيدت أجل مدارس العلم وأفخمها في فاس ومكناس ومراكش وغيرها ، وكذلك القصور البديعة التي يندهش السياح أمامها اليوم ، فماذا لم تقض هذه الدول البربرية - بما كان لها من السلطة والحرية - على الشريعة الاسلامية اذا كان البربر يبغضونها ويخشون سلطتها ؟ بل ان أولئك الفرنسيين التبعين لهوى التعصب لا الغرض تناسوا ولاية للولى اسماعيل إذ كان المغرب موحداً توحيداً تاماً ، وتناسوا ولاية المولى الحسن على قرب عهد الناس بها ، ولكن هي الاغراض تعمي وتصم ، ولو أردنا أن نقيم الأدلة التاريخية على إسلام البربر واخلاصهم للشريعة المحمدية لما وسعها المقام في هذا الرد الموجز

وقد اقترح أصحاب هذه النظرية المخطئون في الحكومة المغربية : عدة اقتراحات عملية بناء على نظريتهم الفاسدة من شأنها أن تبعد البربر من العرب والاسلام ، وتبشيرهم [illegible] وترجعهم الى المسيحية «دين اجدادهم قبل الاسلام»(١) نلخص مقترحاتهم فيما يلي :

(١) يجب على فرنسة أن تبعد العربي عن البربري ما أمكن

(٢) يجب أن تفتح مدارس فرنسية بربرية يحظر فيها تعليم الاسلام والعربية

(٣) أن تغلق الكتاتيب القرآنية في القبائل البربرية وتعرقل على رؤساء الطرق الصوفية والوعاظ المسلمين وسائل الوصول الى هذه القبائل

(٤) تشجيع التبشير في القبائل ومنح اعانات مهمة للجمعيات التبشيرية والسعي في تسهيل أعمالها .

وآخر ماوصل اليه تفكير هؤلاء المقترحين اقتراح تأسيس محاكم عرفية لا يحكم فيها قضاة الاسلام ولا تطبق فيها الشريعة الاسلامية وانما تعتمد على عادات تكونت عند البربر في مدة ثورتهم على السلطان وخروجهم عن أحكامه ، مع قوانين فرنسية أحدثت في المغرب لمصلحة الاستعمار ، ولهذا تتكون ادارة تسمى « ادارة

(١) أي بزعم هؤلاء المضلين والحق انه لم يتنصر منهم في ذلك العهد الا الاقلون

المدلية البربرية » تقابل « وزارة الحقانية الاسلامية » وبهذا تستطيع فرنسة أن تبعد الاسلام من قبائل البربر الابعاد الاخير

ماذا كان موقف الحكومة الفرنسية إزاء هذه المقترحات ؟ الواقع انها في أول الأمر لم يكن لها موقف واضح ، بل إن المارشال ليوطي ـ القيم العام سابقا ـ كان يحبذ في كثير من الاحيان تعريب البربر ، ثم جاء بعده (ستيغ) فاستغوته النظرية البربرية ففتح مدارس فرنسية بربرية يتعلم فيها البربر كل شيء ـ كما قال (لوجلي) ـ إلا اللغة العربية والاسلام » وصارت لغة البربر تكتب فيها بالحروف اللاتينية بعد ما كانت تكتب بالحروف العربية ، ومن المعلوم ان المسيو (ستيغ) بروتستنتي متعصب لمذهبه فأجاب طلبات المبشرين البروتستانتيين واضطر أن يعين معهم الجمعيات الكاثوليكية ، ودخل بهذا العمل برنامج البربر في طور التنفيذ ، وصار المراقبون الفرنسيون في القبائل البربرية يعنون تأسيس المساجد ويعينون على اقامة الكنائس في [illegible] القبائل التي لا يوجد فيها مسيحي واحد ومنع فعلا تجول [illegible] في تلك النواحي ، [illegible] منها أصحاب الكتاتيب القرآنية ، وأوجبت [illegible] ـ [illegible] والقبائل ـ جوازات خاصة لا يتمكنون من السفر الى القبائل البربرية إلا بعد الحصول عليها بعد جهد جهيد ومشقة عظيمة ، وظلت حكومة فرنسة جادة في عملها وتنفيذ خطتها ضد الاسلام مجردة من كل عاطفة سامية أو شعور شريف ؛

وكان المغاربة يعلمون نيتها ويلاحظون أعمالها متألمين من ذلك أشد الألم غير ان عقلاءهم مطمئنون لاعتقادهم ان البربر سيظلون معتصمين بدينهم ، وان علاقاتهم بإخوانهم العرب لا يمكن انفصامها . بل ستجعلهم يستعربون حتما لان البربري لا يرى في العربي عدوا أجنبيا ـ كما يدعي الفرنسيون ـ بل يرى فيه أخا مخلصا في الوطنية والدين ، يعيش كما يعيش ويفكر كما يفكر ، ويُضطهد كما يُضطهد ، ويشتركان في عداوة عدو واحد . وهؤلاء العقلاء لا يسلمون ان فرنسة ستعزل البربر بنوع من العزل بل يرون ان البرابرة لا يمكنهم الاخلاص لفرنسة مادامت فرنسة لابد من أن تفقرهم وتجردهم من كل ما يملكونه من ثروة وأرض ومال ، وأن تعاملهم بأشد أنواع القساوة والطغيان

عندما رأت الحكومة الفرنسية انها أمكنها تنفيذ الفكرة السابقة بدون أن تلقى معارضة قوية من المغاربة ، ظنت ان الوقت مناسب لتنفيذ آخر اقتراح وصل اليه المشتغلون بالقضية البربرية من الفرنسيين ليكون «مسك الختام» في هذه القضية فأعلنت باسم السلطان المعظم أمراً عاليا (ظهير شريف) يقال انه وقع بطرق غير مشروعة يقضي منطوقا ومفهوما بعزل البربر ـ أكثرية البلاد الساحقة ـ عن بقية اخوانهم المسلمين وتجريدهم رسمياً من شريعة القرآن . وبذلك يهدم في هذه البلاد أعظم شطر من الاسلام وهو الشطر التشريعي الاجتماعي الى حين يكمل سعي المبشرين هدم الشطر الآخر (وهو الروحي الاعتقادي) ولا يخفى ما في هذا « الظهير » من العدوان على الشعب المغربي المسلم والمس بسيادة السلطان التي تحميها العهود الدولية ، وعهد الحماية الذي عقده المولى عبد الحفيظ بنفسه ، وأصدرت الاقامة العامة « دار المندوب السامي » بهذه المناسبة قرارا فأصبحت الاستعمارية في المغرب تهنيء فيه نفسها بهذا النجاح العظيم ، وصوطا الى انقاذ البربر من قانون الاسلام .

هياج المغاربة على فرنسة لاجل البربر [illegible]

شاع هذا الخبر السيء في طول البلاد وعرضها وعم الاستياء في جميع نواحي المغرب ، لا فرق بين المدن والقبائل ، أما في المدن فأخذ الناس يتجمهرون في المساجد يتلون صيغة مخصوصة يرددونها جماعات باصوات مرتفعة ، انهم لا يرضون أبداً أن يفرق بينهم وبين اخوانهم البربر ، واتخذ الناس من أوقات صلاة الجماعة فرصة للقيام باعلان الاحتجاج والسخط العظيم ضد مشروع التمسيح (التنصير) الفرنسي الذي يريد أن يكتسح الاسلام من قلوب المغاربة المسلمين(١) فأمر ولاة الامور الفرنسيون ان تقفل تلك المساجد التي (أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) وفعلا أقفلت في مراكش وألقي القبض على ثلاثين شخصا في مدينة الدار البيضا ، وزجوا في السجون ، وعزل مؤذن وامام

(١) المنار : هذه الاخبار اجمال لرسائل التي جاءت من عدة بلاد من المغرب وكانت سبب اصدار البيان الاسلامي العام الذي نشرناه في هذا الجزء . وفيها ان الصيغة التي أعلنوا بها الخبر هي ما اعتادوه في أوقات الشدائد كالأوبئة والحروب من قولهم : يا لطيف الملف بنا فيما جرت به المقادير ، وتكرارها برفع الصوت ألوفا من المرار

مسجد من وظيفتهما في مدينة تطوان لسماحهما للمسلمين بالاجتماع في المسجد وقراءة صيغة الاحتجاج ، والحركة في الرباط وفاس وسلا كانت أقوى وأهم ، فقد وقع اجتماع كبير احتشد فيه ماينيف على ٧٠٠٠ شخص ، وألقيت فيه خطب تبين خطر الوقف الحاضر ، ولم يمض وقت يسير حتى زج من كان يخطب في السجن مع المجرمين

ووقع في فاس أعظم اجتماع من أجل هذه القضية انعقد في كلية القرويين (الجامعة الاسلامية الوحيدة في المغرب) وخطب في ذلك الجمع الحاشد خطيب بين المصيبة الكبرى ونتائجها الوخيمة على مستقبل الاسلام ، وبعد ذلك خرجت تلك الجموع متجمهرة تتضرع الى الله تعالى وتوجهت الى المشهد الادريسي ضريح مولاي ادريس ـ حيث ألقيت الخطب الحماسية على الشعب وتليت آي الذكر الحكيم ، ومن هنالك خرج الجمهور متوجها لبيت شيخ الاسلام يطلب رأيه وموقفه في هذه النازلة الكبرى ، وكانوا في طريقهم يرفعون أصواتهم هاتفين « لتحي شريعة الاسلام تحت راية الامام » وعند ماوصلوا الى دار الشيخ رجعوا متوجهين الى بيت حاكم المدينة « باشا فاس » وبينما هم في الطريق ان أحد الخطباء ألقي عليه القبض وهنالك توجهوا الى بيت هذا الحاكم ومحكمته أمرهم أن يعينوا من بينهم وفداً خاصا يتقدم اليه ، وأمر المتظاهرين أن يتفرقوا فأبوا ، فأمر عساكره أن يستعملوا العصي في تفريقهم ، وأما الوفد فقد قابله الحاكم بالسب والاهانة ، وأمر بجلد أفراده مئات من الاسواط ، وكل ذلك بمحضر المندوب الفرنسي في المحكمة وبأمره الخاص ، مع أن أعضاء هذا الوفد كلهم من الاشراف والاعيان والتجار والمفكرين . ثم أمر بالقاء القبض على آخرين حتى بلغ عدد المقبوض عليهم مافوق الخمسين ودون المائة ألقوا جميعا في غيابات السجون ، وكان هذا التصرف المرهق من أهم الاسباب لاشتداد الحركة وارتفاع مقياس الحرارة وصار الناس يعلنون ان السلطان ـ الذي باسمه صدر هذا الامر ـ قد خالف شروط البيعة التي كان على رأسها « احترام الكتاب والسنة ومناصرة الاسلام » وأصبح مسؤولا عن هذه الغائلة « وقالوا » ان البيعة التي قدمت للسلطان هي باسم الشعب المغربي كله لافرق بين العرب والبربر ، فمن الواجب على السلطان اذن أن يطبق

شريعة الاسلام في القبائل البربرية كما يجب أن يطبقها على الآخرين ولو بالجبر ماداموا يعترفون بالاسلام ديناً، على أن البربر يطالبون بأن يحكم بينهم بالشريعة الاسلامية دون غيرها، ولم يملوا في يوم من الايام تقويم من أحكام الاسلام

وقد أثارت هذه الحادثة في نفوس المغاربة ذكرى مصيبة الاندلس فان عدو الاسلام عند ما دخل غرناطة تعهد أن يحترم الاسلام والمسلمين ، ولما استقر له الامر كان أول ماقام به هو القضاء على الاسلام . وأصبحوا يحدثون أنفسهم بأنه إذا كانت أغلبية سكان المغاربة من البربر الذين يراد اجبارهم على مفارقة اخوانهم المسلمين فسيصبح العرب أقلية ضئيلة في هذه البلاد، ولا يبعد أن تجبرهم فرنسا يوما ما على اتباع هذه القوانين التي وضعتها للبربر، والتي تجبر المغاربة جميعاً على قبولها اليوم

مخاطبة الوفود للسلطان في مسألة البربر

وأما جلالة السلطان فقد كان مصطافاً في فرنسا عندما كانت هذه الحوادث الكبرى تمثل في المغرب ، وكان البلاد أمام عظم قراراته ، وبمجرد قدومه أعدت وفود عظيمة فيها أكابر العلماء والأشراف والأعيان تألفت في فاس والرباط وسلا ، واتفقت جميع الوفود على مطالب واحدة تقدم باسم « الشعب المغربي المسلم » وكل مادة منها هي سعي الى استرجاع حقوق ضيعها على المغاربة ولاة فرنسة في المغرب ، وقد كان على رأس الوفد الفاسي أحد علماء المغرب المشاهير وأحد كبار الهيئة العلمية في كلية القرويين الشريف السيد عبد الرحمن بن القرشي وزير الحقانية سابقاً . وعند ماتشرف بمقابلة جلالة السلطان خطب خطبة ضافية بصفته رئيساً للوفد ، بين فيها ما كان للبربر من سوابق عظيمة في إعلاء كلمة الاسلام ، والتضحية في سبيل إعزازه ، وبين أن الحكم بينهم كان بالشريعة الاسلامية في كل ادوار التاريخ ، مستنداً في ذلك الى حجج تاريخية مقنعة . فاجابه جلالة السلطان : « انه سيتأمل في الامر وينظر في المسألة » وبمجرد ماشاع هذا الرد ورجع الوفد الى فاس من غير نتيجة معينة هاج الشعب هيجاناً عظيماً وأقفلت الاسواق ووقعت مظاهرات كبرى ، واصطدم البوليس مع الجمهور وسقط كثير في الطرقات والشوارع

وعلى اثر ذلك ألقي القبض على رئيس الوفد (ابن القرشي) وزير الحقانية فيما

قبل ، وعلى رئيس الغرفة التجارية (ابن عبد السلام الحلو) احد أعضاء الوفد الكبار ، وظلت الحكومة تقبض وتسجن الى أن بلغ عدد المسجونين بهذه المناسبة نحو مائة وخمسين شخصاً ، كلهم من خاصة الامة وأعيانها . وبعد أن أودعتهم في سجن فاس رأت أنهم يستحقون أن يكونوا في سجن آخر فيه من انواع العذاب ماليس في سجن فاس ، فنقلتهم الى سجن تازة العسكري وحكمت عليهم بالسجن إلى أجل غير مسمى . وقد أشارت حتى الجرائد الفرنسية في باريس الى هذه الحادثة الاخيرة وذكرت بعض اسماء المسجونين

هياج البربر واعلانهم الاعتصام بالاسلام

اما القبائل البربرية نفسها فلا تسأل عما قامت به من الهيجان العظيم ، بل قد اقامت المناحات في كل جهة اظهاراً لاستيائها القوي مما يراد بها ، وتجمعت قبائل كثيرة حول المحاكم التي اقامتها فرنسة هناك وأعلنت الولاة الفرنسيين انها على الاسلام تحيا وعليه تموت ، ولم تكتف بذلك بل أرسلت وفوداً الى جلالة السلطان تطالبه [illegible] اسلامية على أساس متين ، وبينما جلالته يهتم بإرسال القضاة الشرعيين اليها ، ولاة فرنسة يسجنون جميع الافراد التي جاءت موفدة ، ولا يكتفون بذلك بل يجبرون المديرين لتلك القبائل من المسلمين (العمال) على توقيع رسائل مضمونها شكر فرنسة والامتنان لها من هذا العمل الجيد ، ونحن نعرف أفراداً من هؤلاء امتنعوا من التوقيع على مثل هذه الرسائل فكان عقابهم أن يسجنوا في بيوت الادب (الكنف) وأن تسلط الايدي الفرنسية على وجوههم بالضرب واللطم حتى دميت تلك الوجوه

وهنا نجد الفرصة سانحة لعرض مطالب الشعب المغربي التي قدمتها وفود البلاد بصيغة واحدة وهي وحدها كافية في اطلاع اخواننا من أبناء الشرق على مظالم فرنسة وعدوانها على الاسلام في المغرب ، ففي كل مطلب احتجاج صارخ على عمل قامت به فرنسة ضد ذلك المطلب ، ولا يعقل أن يتجه شعب كامل إلى مطالب بعينها وهو حاصل عليها وانما يطالب بما كان مفقوداً ، ولا تتجه رغبة شعب بأسره إلى هذه الناحية بخصوصها إلا بعد شعوره بأن كيانه ضائع ، وان حياته آيلة الى الفناء ، وهي هذه :

مطالب الشعب المغربي المسلم

١ — احترام نفوذ جلالة السلطان بالايالة الشريفة وتثبيت سلطته الدينية والدنيوية ، وذلك بجعل سائر الولاة الحزبيين (ولاة الدولة) من قضاة وقواد وباشاوات ومحتسبين ونظار وأمناء الاملاك مسئولين أمام الحكومة الشريفية (لا أمام غيرها من الموظفين الاجانب)

٢ — إصدار ظهير شريف بجعل سكان سائر الحواضر والبوادي خاضعين لحكم الشريعة الاسلامية

٣ — تنظيم المحاكم الشريفية وإصلاحها وتولية الاكفاء فيها سواء محاكم القضاة او محاكم الباشاوات والقواد والمحتسبين وتعميمها في سائر القطر المغربي لافرق في ذلك بين حواضره وبواديه

٤ — توحيد برامج التعليم في جميع المدارس التي تؤسس لتعليم الوطنيين في المدن أو في القرى ، وتعليم اللغة العربية التي هي لغة القرآن ، وتعميم التعليم الديني الاسلامي في كل المدارس

٥ — احترام اللغة العربية — لغة البلاد الدينية والرسمية في جميع الادارات بالايالة الشريفية وكذلك في سائر المحاكم وعدم إعطاء أي لهجة من اللهجات البربرية أي صبغة رسمية ، ومن ذلك عدم كتابتها بالحروف اللاتينية

٦ — إيقاف حركة المبشرين على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ، ومنعهم من التجول في القبائل والحضور في أسواقها ومواسمها ، وعدم السماح لهم بنشر أي شيء يمس بكرامة الاسلام وكرامة النبي ﷺ بأي نوع من أنواع النشر

٧ — عدم منح أي اعانة من ميزانية الدولة الشريفية أو اعطاء أي ملك من أملاك المخزن الشريف للجمعيات التبشيرية ، والساعين في تشييد الكنائس وأندية التبشير في أطراف البلاد المغربية

٨ — عدم السماح للمبشرين باحداث ملاجيء للايتام واللقطاء المسلمين وإحداث مدارس صناعية وعلمية (كليـموتيا) للبنين والبنات ، والانفاق على

ذلك من المال المعد لمصالح العامة وأموال جماعة المسلمين (كما هو مقرر في الشريعة الاسلامية) أما ماسبق تأسيسه من هذا النوع فاما أن تقوم به الحكومة الشريفية وإما أن يقفل ، وعلى كل حال لاينبغي أن يبقى تحت نفوذ المبشرين

٩ — لا يعين الرهبان والمبشرون مدرسين في مدارس الحكومة الشريفية أو قائمين بادارتها

١٠ — عدم التعرض لفقهاء المكاتب والمشارطين لتعليم (اللغة العربية والقرآن الكريم بالقبائل) وإعطاء الحرية للوعاظ والعلماء وشيوخ الطرق الصوفية للتجول في الانحاء المغربية بقصد تعليم الناس أحكام دينهم وحثهم على شعائره

١١ — إسقاط جوازات التنقل بداخل الايالة المغربية (وخصوصا فيما بين المدن والقبائل البربرية) والاكتفاء بورقة التعريف الشخصية حتى لا يظل الحضري بعيداً عن أخيه البدوي ويتعذر عليه التفقه في الدين

١٢ — اعتبار جميع السكان الموجودين بالبلاد المغربية ـ ماعدا الاجانب ـ تحت رعاية مولانا [illegible] الشرعية والمخزنية التي تؤسس باسمه الشريف [illegible] — ماعدا يهود المغرب — بمعنى أنه لا توجد ملة ثالثة معترف بها للمغاربة الوطنيين

١٣ — منح العفو العام عن جميع المسجونين والمنفيين في هذه القضية البربرية وعدم التعرض بسوء لكل من خاض فيها

وبعد فهذه هي مطالب الشعب المغربي التي يتعذب من أجلها عدد كبير من عظمائه وشيوخه وشبانه في غيابات السجون . وهذا هو الملخص البسيط الذي نقدمه لاخواننا الشرقيين عن حركة المغرب الكبرى التي تثير شعور العالم الاسلامي أجمع ، وعلى رأسه الامة المصرية الكريمة ، وجامعة الازهر الشريف معقل الاسلام وحصنه الحصين ، والجمعيات الاسلامية المخلصة في مصر

فهل لمفوضية فرنسة في مصر أن تكذب هذه الحوادث التي ذكرناها تكذيباً صريحاً ؟ وهل لها أن تقول ان فرنسة لا تأخذ من مالية المسلمين التارية ومن أحباسهم (أوقافهم) الاسلامية إعانة مهمة للجمعيات التبشيرية التي تنشرها في كل

أنحاء المغرب ؟ وهل تستطيع أن تنفي أن عدداً من المراقبين الفرنسيين على رأسهم المراقب المدني في قبيلة زمور منع البربر من بناء مسجدهم الاسلامي وأذن للمبشرين على إقامة الكنيسة هنالك بدل المسجد ؟ وهل لها أن تكذب أن هذا المراقب نفسه ومراقب قبيلة بني مطير (إحدى القبائل البربرية) خطبا في دائرتي نفوذها قائلين « ان العرب انما هم غزاة غرباء ، وان فرنسة انما أتت للمغرب رغبة في إنقاذ الشعب البربري من العرب وشريعتهم وسلطانهم » وهل لها ان تقول انه لا يوجد في القبائل البربرية مدارس فرنسية تجبر البرابرة على تسليم أولادهم اليها جبراً وهي خالية من الاسلام ومن العربية بل فيها تبغيض الاسلام للبربر والتنفير من العرب ؟

فما قول جريدة الاهرام المحترمة ؟ ومن ورائها مفوضية فرنسة ؟ هل تقول بعد هذا ان ما ينسب الى فرنسة لا يمكن يعتقده الا البسطاء السذج ؟ في معرض ردها على جمعية الشبان المسلمين التي تعرف الحقيقة وتساعد على نشرها لاتبغي من وراء ذلك جزاء ، ولا شك أن الهم انها حقائق واضحة لا يمكن أن ينكرها إلا من في قلبه مرض ، أو في صدره غرض .

واخيراً نتقدم باسم الشعب المغربي الى الامة المصرية الكريمة وعلى رأسها رجال الازهر الشريف والمشتغلون بمسائل الدين والاسلام وقادة التفكير في مصر شاكرين مغتبطين على مشاركتنا الفعلية لنا في احزاننا واحتجاجاتنا ضد الحكومة الفرنسية العاتية ، ونود أن يظل الرأي العام المصري واقفاً على الحقيقة الواقعة في المغرب اليوم ، وأن يناصر الامة المغربية المسكينة في موقفها الجدي ضد فرنسة التي اعتدت على دينها ووحدتها ، كما اعتدت على جميع حرياتها ، فليس هنالك أكذب من ظالم ولا اصدق من مظلوم

ونتقدم الى اخواننا من ابناء الشرق الاسلامي وأممه راجين منهم أن يبثوا على نشر هذه الحقائق بين أممهم وأن يساعدونا على رفع احتجاجاتنا الصارخة الى العالم شرقيه وغربيه ، وأن يناصرونا ضد طغيان فرنسة ، ويعرفوا جميع الشرقيين بالموقف الحاضر في المغرب الاقصى . ولنا اقوى الامل في اجابتهم هذا الرجاء الصادر من أعماق قلوب شعب مظلوم ، وقيامهم بالواجب معنا جنبا لجنب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل الطلبة المغاربة بباريس

تهنئة للمنار ونقد واقتراح

من الاستاذ الفاضل وأحد دعاة الاصلاح بتونس صاحب الامضاء

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الامام العلامة المصلح الكبير الاستاذ الجليل السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي الزاهر ، دام فضلكم وأبقاكم بدراً منيراً ، وكوكباً ساطعاً ، ومحيياً للمسلمين ، ورجماً للملحدين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته عدد مايشكركم شاكر ، ويذكر فضلكم ذاكر ، وبعد يسرني أن أتقدم لحضرتكم بغرر التهاني بمناسبة دخول المنار المحبوب الى عامه الجديد ، جعله الله سعيداً عليه وعليكم وعلى الجامعة الاسلامية بالتوفيق والهداية وبلوغ الآمال ، ونجاح الاعمال

نراكم يا سيدي العزيز تقومون بواجبكم [illegible] في محاربة الملحدين الطائشين، وتقفون لهم في كل سبيل ، فشكراً [illegible] على هذه العناية والجهاد في سبيل الله ، وان الملحدين [illegible] على رؤوسهم الصواعق ، فمنذ [illegible] يقول أحدهم « ان محمداً كان رجلا استعماريا » ويندم آخر على مافرط منه في صغره من أداء الصلوات وحفظ القرآن ، ويقول آخر ان الدين يلزم أن لايتعدى المسجد كما فعل م ... لعنه الله

والذي ألفت اليه نظركم السديد هو — وان عده غيري من باب (الاستعداء على المنار) — الاهتمام بحركات الجامدين وجماعات الطرق الذين اتخذهم الغاصب آلة بيده يديرهم كيف شاء ، ومتى شاء لتشتيت شمل المسلمين ، ونشر دعايات المحتلين ، وما خيانتهم للامير محمد بن عبد الكريم إلا أكبر مثال على ما لهؤلاء من اليد الطولى في التفريق وتأييد الظالمين

نعم سيدي ، اولئك جماعات الطرق الذين ينشرون الجهل ، ويبثون فساد الاخلاق ، ويعملون مع النصارى ضد المسلمين ، وأكاد أستغرب سكوت المنار على المؤتمر الافخارستي الذي انعقد بتونس . وكان جديراً بأمثال المنار أن يؤازر تونس المقهورة ويضم صوته اليها في الاستغاثة من الذين يسعون في تصيير تونس الاسلامية كنيسة مسيحية ، ويؤازر أعمالهم الصادرة من أعماق الكنيسة ورجال

السياسة عندنا ورجال الدين أيضاً ، إذ هم قبلوا العضوية وكانوا مع الزمان علينا بدل أن يصبحوا معنا ، ولكن ابتلينا بهم ولا رد لقضاء الله . ولولا ضيق وقتكم وكثرة أشغالكم وسعيي في عدم تفويت ثمين أوقاتكم عليكم لحدثتكم كثيراً عما يختلج بضميري من الحوادث التي تقع عندنا . ورغماً عن منافاتها للدين الحنيف فان رجالا يقرونها بسكوتهم . وكذلك المصائب السياسية التي أمطرنا بها الاستعمار الظالم فانها لاتحصى ويكفي أن تلقي نظرة على أحوالنا فترى ما آل اليه أمرنا و(كرأونا) ينظرون ويطربون . وسيأتي يوم . . .

وأختم كلمتي هذه باقتراح نراه مع بساطته نافعاً ان شاء الله وهو أن تصدروا صحيفة أسبوعية مثل الفتح فاننا في حاجة اليها . وقد تزداد الحاجة يوما فيوما . وعسى أن تعملوا بهذا الاقتراح ومثلكم لا يحتاج الى تأكيد

سيدي قد وصلني السلام والشاي من جهتكم مع الاستاذ طفيش ، فشكراً لكم على عواطفكم وهديتكم المستمرة وأدام فضلكم وكتب لكم الاعانة والسلام

من ... مصطفى بن شعبان

[المنار] نشكر للأخ ... ونعجب لحضه إيانا على بيان مفاسد الجامدين ، ومشايخ الطريق الدجالين ، ومن ذا الذي سبقنا في العالم الاسلامي الى هذا أو لحقنا في ميدانه ، ولكن لايمكن أن نحصي في كل جزء ولا في كل مجلد من المنار كل ما في العالم الاسلامي من فساد وإلحاد وكل ما يرهقه به أعداؤه من ظلم واضطهاد ، ولعله لم يطلع إلا على المجلدات الاخيرة التي أكثرنا فيها الكلام في ملاحدة المسلمين ، لكثرتهم وإظهار دعايتهم في هذه السنين ، وهم أضر علينا من الخرافيين والمبشرين . وأما المؤتمر الافخارستي فلم يكتب لنا شيء في موضوعه إلا في هذا الشهر ، وأما اقتراحه علينا انشاء جريدة أسبوعية فقد اقترحه علينا غيره من قبله ولكن أوقاتنا لاتتسع له وليس لنا مساعد على أعمالنا الكثيرة .

وأكثر محبي الاصلاح من علماء المسلمين وعقلائهم يقترحون علينا ترك كل عمل يعوقنا عن اتمام تفسير كتاب الله تعالى الذي يتضمن كل مايحتاجون اليه من بيان لحقيقة الدين ودفاع عنه ، ولعلنا نفضل هذا الاقتراح على غيره قريبا والله الموفق .

الشيخ سليمان بن سحمان

وفاته وترجمته من جريدة أم القرى الغراء

نعت الينا أنباء نجد وفاة العالم العلامة الفضال الشيخ سليمان بن سحمان وهو من أكابر علماء نجد الاعلام ، توفاه الله في هذا الشهر عن عمر ناهز الثمانين عامة قضاها في الدرس والتأليف . وقد كان لنعيه رنة أسى وحزن في نجد جميعاً ولدى كل من عرف فضل الاستاذ وما آتاه الله من علم وفصل في الخطاب

ولد المرحوم في قرية (السقا) من أعمال ابها في عسير في الثلث الاخير من القرن الثالث عشر الهجري ، وإلى ذلك يشير في إحدى قصائده :

وأرض بها علي نبعات غمائمي [illegible] (السقا) دار الهداة أولي الامر
بلاد بني تمام حيث توطنوا وآل يزيد من صميم ذوي الفخر

وقد نشأ في [illegible] والده إلى بلد الرياض أيام الامام فيصل [illegible] رحمه الله ، وقد كانت حينئذ آهلة بالعلماء الاكابر فأخذ العلم عنهم لاسيما عن الامامين الجليلين : الشيخ عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، والشيخ حمد بن عتيق ، فبرع في كثير من العلوم وعلى الخصوص في علم التوحيد والفقه واللغة

ثم تولى الكتابة للامام عبد الله بن فيصل برهة من الزمن ، ثم استقال وتفرغ للعلم فدرس على علماء وقته امثال الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وأخيه الشيخ ابراهيم ، وعمهما الشيخ اسحاق بن عبد الرحمن

وكان جميل الخط فاشتغل في نسخ كثير من الكتب الجليلة ، وقد كان هذا وابتعاده عن الناس اكبر مساعد له على الدرس والمطالعة

وكانت عنده كناشة كبيرة يجمع فيها ما يجده أثناء النسخ والمطالعة من المسائل الدقيقة والقضايا الغويصة وكان يرجع اليها عند الحاجة . وكان ضليعا في اللغة العربية ، واقفا على اسرارها

وقد كان رحمه الله يميل الى السكون والابتعاد عن الشهرة ، فكان زاهداً تقيا صادعا بالحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وقد صنف المصنفات العديدة من نثر ونظم ، أكثرها في الرد على أهل الزيغ والالحاد ، منها :

(١) الاسنة الحداد ، في الرد على الحداد (٢) الضياء الشارق ، في رد شبهات الماذق المارق . ويريد به داعية التعطيل في هذا العصر : (جميل) صدقي الزهاوي (٣) تنبيه ذوي الالباب السليمة (٤) الهدية السنية (٥) إقامة الحجة والدليل (٦) تبرئة الشيخين (٧) الصواعق المرسلة (٨) إرشاد الطالب (٩) رسالة في الرد على أناس من الاحساء (١٠) رسالة في الرد على الملحي (١٠) كشف غياهب الظلام (١٢) فتاوى وغيرها من الكتب والردود . وقد جمع ورتب رسائل أستاذه الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ فبلغت نحو عشرين كراسة سماها (عيون الرسائل ، والاجوبة على المسائل) وكان المرحوم شاعراً بليغا جمع قسما من قصائده وأشعاره في ديوانه المسمى (عقود الجواهر المنضدة الحسان) وقد طبعت جميع كتبه على نفقة [illegible] صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود المعظم ووزعت على طلاب العلم مجانا

هذا ما اتصل بنا من ترجمة المرحوم الاستاذ رحمه الله تعالى ، وفي الجملة فقد كان رحمه الله من سيوف الله المسلولة على أهل الزندقة والالحاد ، وصاحب الحجة الدامغة في دفع الشبه والريب التي يذيعها أهل المروق من الدين ، والذين كان يغريهم شياطين السياسة من المرتزقة المرذولين . وكان شديد الصراحة فيما يعتقد من الرأي ، لم يعرف المحاباة في رأيه مدة حياته وهو في كل مجالسه حفياً بالسؤال عن كل ما يطبع من الكتب النافعة كما يحرص على اقتنائها . وقد كف بصره في آخر حياته ولكن ذلك لم يمنعه عن المطالعة والتأليف وتفقد الذين يطعنون في الاسلام وفي دين التوحيد الخالص لرد كيدهم الى نحورهم . وبهذا كان رحمه الله ركنا من أركان الدعوة الى الله ، والسيف القاطع لمن يريد ان يصد الناس عن سبيل الله . فنسأل الله ان ينزل عليه غيث رحمته ، وأن يوفق للعمل كي ينشأ كثيرون من طلبة العلم على منوال الشيخ المرحوم فلا تفقد نجد بهجة علمها وعلمائها :

الشيخ أبو بكر خوقير : وفاته وملخص ترجمته

فجعتنا أنباء الحجاز في الشهر الماضي بوفاة صديقنا العالم العامل المصلح الشيخ أبو بكر خوقير
رحمه الله تعالى رحمة واسعة [illegible]

هو أبو بكر بن محمد عارف بن عبد القادر بن محمد علي خوقير ، من بيت علم بمكة ولد فيها وتفقه أولا على مذهب الحنفية تبعا لآبائه ثم أن استاذه مفتي مكة الشيخ عبد الرحمن سراج الحنفي اشار عليه وعلى آخرين من طلبة العلم بأن يتفقهوا في المذهب الحنبلي ليكون في علماء الحجاز من يتولى منصب الفتوى في هذا المذهب بدلا من علماء نجد الذين كانوا يتولونه لعدم وجود أحد من علماء الحنابلة في الحجاز ولم يكن هذا مما ترتاح اليه الحكومة العثمانية ولا أمراء الحجاز ، فدرس الفقه الحنبلي وتمكن فيه ومن مذهب السلف في العقائد . وقد عين مفتيا للحنابلة في أول إمارة الشريف حسين بن علي ولم يلبث ان غضب عليه فعزله وعين بدله أحد الشافعية فكان لا يفتي للحنابلة الا بعد مراجعته والاخذ بما يرشده اليه وجعله الشريف حسين عضوا في مجلس الشيوخ ثم عزله بعد سنة لاعتراضه على خوض محرر جريدة القبلة في تفسير القرآن بغير علم وكان الشريف نفسه هو الذي يفسر بعض الآيات برأيه في بعض [illegible] الرسمية ايضا .

وقد امتحن وأوذي [illegible] البدع والخرافات ولا سيما بدع القبوريين [illegible] ثم حبس ثانيا نحواً من سبعين شهراً في عهد الشريف حسين ، وحبس ولده الشيخ عبد القادر في سجن القبو الذي هو شر من سجن الحجاج بن يوسف وقد سبق وصفه في المنار فمات فيه صبراً ، وكان له ابن صغير فمات كمداً وقهراً ، وخرج الشيخ من سجنه لامال له وانما كان يصيبه قليل من أوقاف الحرمين التي تأتي من الآستانة ومصر والشام والعراق . وكان قد اعتاد الاتجار بالكتب منذ عزله الشريف عون الرفيق من وظائف الحرم الشريف إذ كان غضب على الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي مكة ورئيس العلماء فيها فعزله وعزل جميع رجاله من المفتين والمدرسين . وكان الفقيد منهم افتاء الحنابلة وامامة الصلاة في مقام الحنابلة كما كان مدرساً . وكان يدعو للشريف عون بالرحمة لالجائه إلى تجارة الكتب التي تعينه على العلم ، فكان يذهب إلى الهند يحمل اليها من مطبوعات مصر ومكة ويعود منها ببعض مطبوعاتها إلى مكة ، وقد جلست اليه في مكتبته في باب السلام غير مرة ، وكان مهذبا رقيق الطبع حسن العاشرة على شدته في دينه وامره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، حتى ان مجلسه لا يخلو من دعابة ما في الفاكهة ، ونكت ادبية وتاريخية وكان يحب سماع الأصوات الشجية ولا يرى بها بأسا (للترجمة بقية)